جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بإيتاي البارود

فن التعزية النثرية
دراسة في المضمون والنسق

دكتور
محمد محمد بظاظو
أستاذ الأدب والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر
بإيتاي البارود

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

لم يلق (النثر) من العناية ما لقي (الشعر)، ولئن كان الشعر ترجمان الوجدان فإن النثر مستودع الإبداعات العقلية والمضامين المبتكرة التي اكتنز بها الوعي العربي في تعامله مع مختلف التجارب وبخاصة المحن، تلك التي اتسع نطاق التفاعل معها واستكناه أسرارها بعد مجيء الإسلام.

وفن "التعزية" من الفنون النثرية التي ظهر فيها إبداع العقل العربي مضمونا وصياغة، ولكنه لم يحظ بالاهتمام الكافي في الدراسات النقدية، وإن اهتم بعض مؤرخي الأدب بجمع نصوصه.

وهذا البحث محاولة لتجلية مجالات إبداع العقل العربي في فن "التعزية"، وإبراز مظاهر ذلك الإبداع، من خلال تحليل النصوص وكشف عناصر الأداء فيها.

فهو يعالج مشكلة تتحدد معالمها من خلال الأسئلة التالية:

- هل يعد الأداء النثري في حالات التعزية "فنا"؟
- وهل احتوت نصوص ذلك "الفن" على ابتكار في المضمون وتميز في الصياغة؟
- وهل تشكل "مضامين التعزية "جانبا مهما من تكوين "العقل العربي" قبل الإسلام وبعده؟
- وهل اتسع نطاق تلك المضامين – تكوينا أو تطويرا – بعد تشرب "الوعي العربي" لعقائد الإسلام ومفاهيمه؟

وإنما اخترت "**التعزية النثرية**" دون "الشعرية" لأسباب هي:-

- أن النثر أقدر على حمل المضامين العقلية المبتكرة وبخاصة الفلسفية التي يحتويها مقام "التعزية".
- أنه لا تغلب عليه المبالغات التي هي عماد الشعر، ومحور التأثير الوجداني فيه، ذلك أن الغالب في "التعزية" عند العرب قبل الإسلام الاعتماد على حقائق عقلية تتعلق بقضية (الإنسان وصراعه مع الحياة والزمن ورحلته على الأرض)، وأضيف إليها بعد الإسلام (البعد الأخروي) من انتظار الأجر، وابتغاء حسن العاقبة للفقيد، وتلمس العظة من حادث الابتلاء، ولا يخفى أنها كلها من المضامين المرتكزة على الحكمة، البعيدة عن الغلو أو الشطط العاطفي.
- أنني عثرت – خلال سياحة في مصادر الأدب – على نماذج متميزة ومبهرة للتعزية، كان مسلك المعزي فيها غاية في البراعة واللطف، سواء في الفكرة التي اعتمد عليها، أو في طريقة صياغتها، وقد خصصت المحور الأول في هذا البحث لنماذج هذا اللون من التعزية.

والتعزية "فن" يحتاج إلى "مؤهلات خاصة" لدى المعزي، ويتضح ذلك من خلال **ثلاثة جوانب:**

١. استحضار مقام "التعزية" وما يصاحبه من بلاء، ربما يكون وفاة، أو مرضا، أو حرقا، أو غيرها، فهو مقام شديد الدقة بالغ الحساسية لصعوبة التجربة التي يعيشها (المعزَى).
٢. أن مضامين التعزية تقوم على دعامتين:

أ- ذوق راق تشكله منظومة المجتمع بكل عناصرها (الأسرة، المنظومة القيمية، المحيط العام، العادات والتقاليد) تلك التي تشكل (العقل الجمعي) للمجتمع.

ب- خبرة واسعة مستمدة من كثرة التجارب، وسعة العلم، وعمق الفقه بالأدوار الاجتماعية للإنسان، وما يصحبها من ظروف نفسية، فالرجل يكون (ابنا، أخا، زوجا،...الخ وما يصحب ذلك من أدوار التربية والرعاية والتعليم).

والمرأة تكون في المقابل (بنتا، أختا، زوجا، أما،...) ولها مع كل دور تكوين نفسي خاص، يجب مراعاته عند التعاطي معها في مقام العزاء.

٣. المقدرة البلاغية ضرورة للمعزي تلك التي تقوم على انتقاء اللفظ، ودقة تشكيل العبارة، ونظم السياق، بحيث يكون الأداء (حساسا) يتناول الجراح بلطف فيأسوها بمس رقيق، يدعمه (الإشفاق) و(الكياسة) معا.

وإن في تراثنا الأدبي ما يشهد لأهمية هذه الجوانب الثلاث، وضرورة مراعاتها، في تقديم نموذج اجتماعي حضاري يليق بهذه الأمة.

وإذا كانت الأشياء تتميز بضدها، فإننا نعرض هنا نماذج خلت من أدوات "الفن" وعناصره، إذ اتسمت بتدني (الذوق) أو انعدامه، مع تفاهة المضمون، وسوء التعبير، ذكرها "أبو إسحاق برهان الدين الوطواط" في قوله:

"وواجب هنا أن نبدأ بأخبار من أساء في التفقد والعيادة، ولم يحسن خطابه في السؤال والإعادة. قال عامر بن شراحيل الشعبي: عيادة النوكى أشد على المريض من مرضه، فإنهم حمى الروح، وطليعة ملك الموت.

دخل حمصي على عروة بن الزبير - يعوده لما قطعت رجله، لألم أوجب عليه فعل ذلك من أكلة أصابتها - فقال: أقطعت رجلك؟ قال: نعم، قال: جيد، قال: أوجعك شديد؟ قال: نعم، قال: جيد، ثم قال: لا تغتم؛ فإنك لو رأيت ثوابها

لتمنيت أن الله قد قطع رجليك ويديك وأعمى بصرك ودق صلبك. فكان مصاب عروة بعائده المزيد في نكده أكثر من مصابه بما قطع من رجله"([1])

ثم يعلق صاحب (غرر الخصائص) مقارنا بين نموذج السفه والجهل ونموذج "الفن" ذي المضمون الإنساني الحكيم، والعبارة الرائقة المنتقاة، فيقول:

"وأين هذا الجلف من (عيسى بن طلحة بن عبيد الله) فإنه دخل على عروة هذا يعوده لما قطعت رجله فقال: والله ما كنا نعدك للصراع، ولا للسباق، ولكن نعدك للخير ونوالك المنساق، ولئن أعدمنا الله أقلك لقد أبقى لنا أكثرك؛ سمعك وبصرك ولسانك وعقلك ويديك وإحدى رجليك. فقال عروة: يا عيسى، ما عزاني أحد بمثل ما عزيتني به"([2]).

هنا نجد الحكمة والمواساة بلطف، عن طريق تهوين أثر الحادث "ما كنا نعدك للصراع ولا للسباق"، وتعظيم قيمة ما بقي وتعداده – النصف المملوء من الكوب – "ولقد أبقى الله لنا أكثرك؛ سمعك وبصرك...الخ".

ومن النماذج التي هبطت إلى حد (القسوة) ما ذكره صاحب (الغرر) في قوله: "ودخل آخر على مريض يشكو من رأسه، فقال لأهله: لا ضير، إذا رأيتم المريض هكذا فاغسلوا أيديكم منه!!، وعاد آخر مريضا فقال له ما بك؟ قال: وجع الركبة، قال: إن جريرا ذكر بيتا ذهب عني صدره وبقي عجزه وهو:

..... **وليس لداء الركبتين دواء**

فقال المريض: ليت عجزه ذهب كما ذهب صدره!!

---

(١) غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة لأبي إسحاق محمد بن إبراهيم الوطواط/٢٨١ ط١ دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨.

(٢) السابق.

وعاد آخر مريضا فلما خرج قال لأهله: لا تفعلوا في هذا كما فعلتم بالآخر؛ مات وما أعلمتموني به!!

وعاد آخر مريضا فلما خرج قال لأهله: أحسن الله عزاءكم، فقالوا: إنه لم يمت؟! قال: قد عرفت، ولكني شيخ كبير لا أستطيع النهوض في كل وقت، وأخاف أن يموت فأعجز عن المجيئ لأعزيكم به!!

وعاد آخر مريضا فقال: ما تشتكي؟ قال: وجع الخاصرة، قال: كانت والله علة أبي فمات منها فعليك بالوصية يا أخي، فدعا المريض ولده وقال: يا بني، أوصيك بهذا لا يدخل علي بعد هذه.

وعاد آخر مريضا فلما رآه أنشد بما أملى قلبه الغبي على لسانه العيي:

يموت الصالحون وأنت حي تخطاك المنايا لا تموت"(١)

ولا شك أن للأدب والفن دورا اجتماعيا هاما، في ترقية الأذواق، وترقيق المشاعر، وتخليص الإنسان من غلظة الطبع وقسوة القلب، وتبلد الإحساس.

كما أن التعرف على أحوال أهل البلاء، وطرق مواجهتهم للمصاعب يحقق نوعا من (الوقاية النفسية) تجاه الشدائد بل يعين على استثمارها، وتحويل محنها إلى منح، وما فيها من كدر وطين إلى ورود ورياحين.

وبهذا يتبين أن التعزية "فن"، لا يقل أهمية – في الجانب الأدبي – عن الفنون النثرية الأخرى كما أن دراسته ذات أثر هام على (التكوين النفسي للمجتمع).

مع أهمية هذا الفن فإنني لم أعثر على دراسات نقدية تعالجه وتجلى معالمه، وإنما اقتصرت المصادر الأدبية على جمع نصوص التعازي وتوثيقها، دون دراسة نقدية إلا في القليل النادر.

---

(١) السابق.

وأقدم تلك المصادر – فيما أعلم – كتاب (التعازي) "لأبي الحسن على بن محمد بن أبي سيف المدائني" المتوفى سنة ٢٢٤ هـ.

ويليه كتاب تلميذه "أبو العباس محمد بن يزيد المبرد" المتوفى سنة ٢٨٦ هـ الذي اقتفى فيه أثر أستاذه "المدائني"، فاقتبس اسمه، ونقل عنه كثيرا، وأضاف إليه فصولا من المراثي والوصايا.

ولم تقتصر مصادر هذه الدراسة على الكتب المتخصصة في التعازي، وإنما اعتمدت على مصادر الأدب الأخرى، (كالبيان والتبيين) للجاحظ، و(عيون الأخبار) لابن قتيبة، و(الكامل) للمبرد، و(الأمالي) لأبي علي القالي، وغيرها مما ذكر في ثبت المراجع.

وقد اعتمدت المنهج التحليلي للنصوص، بهدف استنباط الملامح العامة لفن (التعزية) في الجانبين المضموني والشكلي.

ولذا انقسم البحث إلى **ثلاث محاور:**

- اخترت أن أبدأها بالمحور الأهم وهو (الرؤى الإبداعية) حيث يبرز الابتكار وتجاوز المألوف، وتناول أحداث الابتلاء تناولا خاصا.
- أما المحور الثاني فيتناول المضامين الأساسية الشائعة في (فن التعزية) والتي شكلت الجزء الأكبر من التعاطي الأدبي في هذا الفن.
- واختص المحور الأخير (بالنسق التشكيلي) حيث تعرض الدراسة الإطار العام للتعزية، شفهيا كان أو كتابيا، وملامح صياغة الأداء التعبيري لكلا الشكلين.

ويسبق هذه المحاور (تمهيد) يوضح مفهوم (التعزية)، وآدابها، وأهميتها الاجتماعية.

وتنتهي الدراسة بخاتمة تلخص زبدة ما تضمنته من ملامح فن (التعزية) مضمونا وشكلا، والله من وراء القصد، وهو الموفـــــق والمستعان.

تمهيد

"**العزاء:** الصبر على ما فقدت، وقيل: حسنه، وعزِي يعزَى عزاء، فهو عزٍ، ويقال: إنه لعزيٌ صبور، إذا كان حسن العزاء على المصائب، وعزّاه تعزية فتعزّى... وتقول: عزّيت فلانا أعزيه تعزية أي: أسيته، وضربت له الأُسى، وأمرته بالعزاء فتعزى تعزيا أي: تصبر"(١)

ويرتبط التعزي بدوافع هي من مقومات الشخصية وتكوينها، فقد "كانت العرب في الجاهلية – وهم لا يرجون ثوابا ولا يخشون عقابا – يتحاضون على الصبر، ويعرفون فضله، ويعيرون بالجزع أهله، إيثارا للحزم، وتزينا بالحلم، وطلبا للمروءة، وفرارا من الاستكانة إلى حسن العزاء، حتى إن الرجل منهم ليفقد حميمه فلا يعرف ذلك فيه"(٢)

وحين جاء الإسلام زكى تلك الدوافع، ودعمها باحتساب الأجر عند الله (ﷻ) قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ ﴾(٣)، وقد علق المدائني على هذه الآية بقوله: "يقول الاسترجاع، خبرني بذلك غير واحد من الفقهاء"(٤).

وللتعزية عند العرب آداب، منها أن تؤدى في وقتها، فإن التعزية على المصيبة بعد انقضاء زمنها يجدد الحزن وينكأ الجراح، لذا قال أحدهم لصديقه: " لولا أن تجديد التعزية يجدد جزعا في المصيبة لعزيناك عمن مضى"(٥)

---

(١) لسان العرب مادة (ع زا).
(٢) التعازي للمدائني /٩٠.
(٣) التغابن /١١.
(٤) التعزي للمدائني / ٤٥.
(٥) السابق / ٩٧.

ومن آدابها مع الملوك ألا يعزيهم أحد من حاشيتهم، وأهل بيتهم وقرابتهم، هكذا قرر الجاحظ، وقال: "وإنما جعلت التعزية لمن غاب عن المصيبة، أو لمن قارب الملك في العز والسلطان"(١).

وضرب الجاحظ مثالا لذلك بما قاله عبد الملك بن مروان حين عزاه ابنه الوليد في وفاة بعض بنيه وهو صغير، فقال عبد الملك للوليد: "يا بني، مصيبتي فيك أفدح في بدني من مصيبتي بأخيك! ومتى رأيت ابنا عزى أباه؟! قال: يا أمير المؤمنين، أمي أمرتني بذلك، قال: ذاك يا بني أهون علي، وهذا – لعمري – من مشورة النساء"(٢).

ونلحظ أن اعتراض عبد الملك كان على تعزية (ابن) لأبيه، ولم ينص في اعتراضه على أن ذلك مخالف لتقاليد الملوك، إلا أن يكون عبد الملك قد أخذه بهذا المعنى ولم يصرح به، وربما يشير لذلك تعليقه الأخير على سبب ذلك التصرف من الوليد.

و"التعزية" من الآداب الاجتماعية في ديننا، فقد حث عليها، ولا يكاد يخلو منها المجتمع الإسلامي، ولذا كثرت أخباره، وتنوعت مضامينه، وتفنن الأدباء والمربون في أدائه تشكيلا وصياغة، مما نعرض له بالتحليل فيما يلي من صفحات.

---

(١) التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ / ٩٨، تحقيق أحمد زكي باشا، ط١ المطبعة الأميرية، ١٩١٤.

(٢) السابق.

المحور الأول

رؤى إبداعيـــــــــة

انطلقت العقلية العربية في تعاملها مع النوازل من منطلقات فلسفية، يعضدها – غالبا – بعد إيماني يتمحور حول اليقين بالآخرة.

ويتراءى المنطلق العقلي في التعامل مع حادثة (الفقد/الموت) من عدة زوايا؛ إحداها أنه ليس (انقطاعا/انتهاء) بل (انتقال/تجدد) يتيح اللقاء ولا يلغيه، والأخرى ترتكز على تحوير مفهومي (البقاء والفناء) اعتمادا على دلالتهما القرآنية، والثالثة تعتبر (الموت) معادلا (للاسترواح والخلوص من مكابدة الحياة وشرور الناس)، فهو بذلك (مخلّص/حل للمشكلة) وليس تعقيدا لها، بل إن تلك الزاوية ترقى بـــــ (الموت) درجة أخرى حين تجعله (جائزة/مكافأة) بلقاء رب رحيم.

وتضيف الزاوية الرابعة بعد (الأجر المذخور) ممثلا في (الجنة) باعتبارها تعويضا إلهيا لمحتسب فقد حبيبا، أو لفقيد انتزعه الموت من بين أحبابه.

وترينا الزاوية الخامسة فضل الجليل – سبحانه – على عبده، بأن يهبه الأجر، بعد أن يرزقه الصبر على بلاء محتوم، فيلطف في البلاء، ويجزل في العطاء.

وتعتمد الزاوية السادسة على الرؤية الشمولية للحياة، المستوعبة لحلاوتها ومرارتها، الموازِنة بين (المفقود) و(الموجود)، بنظرة محايدة، يسقطها المبتلى على نفسه حينا، ثم تتسع لتقارنه بمن هم أشد بلاء.

ونلمح في الزاوية السابعة تجربة فريدة لـــ (ثكلى) رجحت الصبر بتحليل منطقي رغم خصوصية (الأزمة) معها.

وتأتينا الزاوية الأخيرة بمجموعة مضامين تصب في ساحة تعامل (الوالد) مع فقد (الولد) فتوظف فكرة (الغياب) المتبوع بالتلاقي، تخفيفا من أثر صدمة الفراق، وتعضدها بالموازنة بين مضموني (الفتنة) في حياة الابن و (الصلاة والرحمة) في وفاته.

ولهذه المضامين شواهد نتناولها بالتحليل في السطور التالية.

"عن إياس بن معاوية بن قرة المزني، عن أبيه قال: كنا نختلف إلى رسول الله (ﷺ) ومعنا صاحب لنا معه ابن له، قال: فقال رسول الله (ﷺ) لأبيه: أتحبه؟ قال: إي والله يا رسول الله إني لأحبه؛ فأحبك الله كما أحبه، قال: فضحك رسول الله (ﷺ).

قال: ثم إن ابنه مات، فجزع عليه أبوه جزعا شديدا، فقال رسول الله (ﷺ) أما يسرك ألا تأتي بابا من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: فسري عنه"(١).

وقد وردت إضافات في بعض كتب السنة على هذه الرواية، منها "...وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره يقعد بين يديه،..."(٢)، وأنهم سألوا النبي (ﷺ) عن تلك المكافأة الربانية للأب بأن يسبقه ابنه إلى باب الجنة..أهي خاصة بصاحب القصة أم لكل من مات له طفل من المسلمين؟ فأجاب (ﷺ): "من هلك له طفل من المسلمين كان ذلك له"(٣)

---

(١) التعازي للمدائني /٩٨.

(٢) المعجم الكبير للطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب، ١٩ / ٣١، ط٢ مكتبة بن تيمية، القاهرة.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٩٨، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط ٣، دار الكتب العلمية ٢٠٠٣م.

كما جاء في بعض المصادر قوله (ﷺ) للمعزَي: "أيهما أحب إليك؛ أن تمتع به عمرك، أو لا تأتي غدا بابا من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه ففتحه لك؟ فقال: يا نبي الله، لا، بل يسبقني إلى أبواب الجنة أحب إلي"(١).

ونلمح في هذه القصة أبعادا إنسانية تسبق حادث الفقد ثم تعالجه حين يقع، تتمثل في تزكية الرسول الرحيم (ﷺ) لعاطفة الأبوة، واستثارتها في نفس الأب، بما يشعر الأب باهتمام النبي بتلك المشاعر، مشاركة وجدانية، ذلك في "أتحبه؟" لأن النبي الكريم رأى الأب لا يكاد يفارق ولده، بل يجلسه أمامه في الحلقة.

وتأتي إجابة الأب متجاوبة مع تلك الاستجاشة الشعورية، متساوقة معها، حين يعبر الأب بالقسم (والله إني لأحبه) ويتبعه بدعاء يظهر مرتبة ذلك الحب (فأحبك الله كما أحبه).

وتظهر بهذه المقدمة شدة الأزمة التي أحاطت بالأب حين فقد ذلك الابن، وتبدو العناية النفسية والرقة البالغة في مؤاساة النبي الرؤوف لجرحه العميق، إذ يتلمس برفق آثار الصدمة فيعالجها "أيهما أحب إليك؛ أن تمتع به عمرك، أو لا تأتي غدا بابا من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه ففتحه لك؟"

وهي موازنة توظف البعد الأخروي المتجذر في عقيدة كل مسلم، فالابن حتى وإن متع أباه عمرا هو في النهاية مفارقه بالموت، وأعمار الدنيا حقيرة قصيرة، بينما المشهد الأخروي الموازن يحمل من الإغراءات ما لا يفرط فيه مؤمن.

والتعبير هنا تصويري، يتجاوز التقريرية برسم مشهد حي متحرك، فبدلا من التقرير (إن الولد يسبق أباه إلى الجنة) جاءت الصورة (وجدته قد سبقك،

(١) السابق.

ففتحه لك) فأشرك الأب في المشهد، محققا له أمنية عزيزة هي إتيان أبواب الجنة.

ومشهد الطفل الذي يسبق أباه ليفتح له باب الجنة هو مكافأة ربانية بشكل عملي؛ فالولد الذي ذقت لوعة فقده في الدنيا هو مفتاح بابك إلى النعيم الدائم والسرور المقيم، جزاء صبرك واحتسابك إياه.

كان ولدك في الدنيا ملازما لك، لا تكاد تفارقه، فأصابتك لذعة الفقد وحرقة الحرمان حين مات، فاحتسبت، فهاهو أول الوجوه التي تبشرك، والأيادي التي تتلقاك، نعيم في اللقاء المتلهف، يعجل لك، ويمهد لدخولك دار النعيم المقيم.

وهي بشارة للمعزى بأنه من أهل الجنة، وزيادة عليها أن ولده سيكون المرحب به، والمستقبل له، في وقت يحرم فيه أهل الجزع والتفريط من مجرد شم ريح الجنة، الذي يجده المتنسم من مسافات شاسعة.

إن البعد الأخروي يهون شدة النوازل، بإفساحه مجال الزمن، وتخطيه حاجز الموت، ووصله الدنيا بالآخرة، حيث اللقاء الدائم في النعيم المقيم، فيخف أثر المصيبة، وينحسر ضغطها بعدة إضاءات؛ أولاها تحوير مفهوم (الفقد) إلى (تأجيل الملتقى)، والثانية ضمان عدم فوات المحبوب، والفوات هو الشعور الذي يركز الحسرة ويعمق الأسى، والثالثة انتظار عاقبة حسنة، وتأمل الانتقال إلى دار بقاء بلا فناء، ولقاء بلا فراق، وهناء بلا معاناة.

ويتحور مفهوم (البقاء) لدى المعزي ليعكس مدلولا قرآنيا، يستخدمه في تهوين شدة البلاء إذ تحكي بعض الروايات أنه قد "استشهد لبعض بني نوفل بنون، فعزاه رجل فقال: آجرك الله في الباقين، ومتعك بالفانين، فقال له رجل:

لعلك غلطت؟ فقال: لا؛ إن الله – تعالى – يقول: "ما عندكم ينفد وما عند الله باق"(١).

ويتكرر المضمون في رواية أخرى مع هارون الرشيد، إذ يعزى بهذه العبارة "آجرك الله بالباقي وأمتعك بالفاني"(٢)

فيعترض الرشيد متعجبا: "ويحك! ما تقول؟" فيجيب المعزي بالآية القرآنية السابقة.

ويعضد هذا المضمون قول النبي (ﷺ) لأم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) عن الشاة التي تصدقت بها ولم يبق سوى كتفها: "كلها قد بقي إلا كتفها"(٣).

وقلب المعنى هنا يرتكز على البعد الأخروي، وهو عامل خطير في تكوين تصور الإنسان للحياة وتعامله مع عنصر (الزمن)، وتحديده لمفهوم (الفناء).

وقد استخدم المعزي تقنية (الإدهاش)، إذ استخدم اللفظة في عكس مدلولها، مثيرا لانتباه المعزي، يعاونه (الطباق) على استثارة عجب السامع، لينكشف المدلول الجديد بالنص القرآني، فيفتح للمبتلى باب للتنفيس عن كربه، وينفسح أمامه مجال الزمن، فلا الدنيا مبقية على من معه، ولا الآخرة مفقدة لمن ارتحل إليها، فيتوازن شعوريا، وتخف لهفته على ما فاته، ويقل حرصه على من حوله.

ومن الناس من يرى الموت راحة، وخلوصا من شرور الدنيا؛ فيسر به ويستروح بنزوله.

---

(١) التعازي للمدائني / ٣٣. والآية الكريمة من سورة النحل / ٩٦.

(٢) البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي ١١٢/٤، تحقيق وداد القاضي، ط١، دار صادر، ١٩٨٨.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤٠ / ٢٨٦، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط١، مؤسسة الرسالة ٢٠٠١م.

يروي ابن عبد ربه عن "عبد الأعلى بن حماد قال: دخلنا على بشر بن منصور وهو في الموت، وإذا هو من السرور في أمر عظيم، فقلنا له: ما هذا السرور؟ قال: سبحان الله! أخرج من بين الظالمين والحاسدين والمغتابين والباغين، وأقدم على أرحم الراحمين ولا أسر؟!"(١).

ويتسق هذا المضمون مع قول النبي (ﷺ) عند وفاته لابنته فاطمة (رضي الله عنها) "لا كرب على أبيك بعد اليوم"(٢).

وهذه النظرة تقوم على جناحين؛ ثقل المعاناة في الدنيا، وارتقاب الرَوح والرحمة في رحاب رب كريم، وبهما يمثل الموت حلا لا أزمة، وفرجا لا كربة.

من هذا المنطلق نستطيع تفسير سرور (بشر بن منصور) في تعزيته لنفسه، ويؤكده تعداده لصنوف الشرور التي عاناها؛ ظلم، حسد، اغتياب، بغي، واختياره صفة (أرحم الراحمين) بصيغة التفضيل الموحية بالسعة التي لا تضيق بمكروب.

كما نلمح هذا الإيحاء في العبارة النبوية الكريمة، فاستخدام (لا) النافية للجنس، توحي بحجم المعاناة التي لقيها الرسول (ﷺ) وهو يواجه في رحلة الرسالة الطويلة صنوف الأعداء من مشركين ومنافقين ويهود، وألوان الأذى التي تحملها خلال تبليغه لدعوته.

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ٣ / ١٤٦، ط١، دار الكتب العلمية ١٤٠٤ هـ.

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ،٥٨٢/١٤، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة ١٩٨٨.

ومن التعزية البالغة الغاية في الإيجاز قول عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) للفاروق عمر (رضي الله عنه) يعزيه في ابن له مات: "عوضك الله منه ما عوضه منك"(١)

و نرى العبارة ذاتها في تعزية الفاروق للصديق (رضي الله عنهما) في وفاة طفل له، ويضاف إليها النص على العوض "فإن الطفل يعوض من أبويه الجنة"(٢)

ويبدو أن هذه العبارة صارت صيغة متعارفا عليها، في تعزية الوالد لفقد ابنه، فقد عزى بها الصديق الفاروق في وفاة أحد أبنائه، في رواية أخرى(٣).

وبذلك نرى المجتمع المسلم يبتكر طريقة التعزية التي تناسب قيمه، وتنبثق من عقيدته، فالآخرة عوض عن كل فائت؛ للابن الفقيد عن والديه، وقد انتزعه الموت من حضنهما الحاني فأبدل به جنة الرحمن، وللأب عن فقد فلذة كبده، وكلا الطرفين فقير إلى ذلك العوض، ففيها ترطيب القلب، وربط الأحداث بمصائرها وغاياتها.

وإذا كان القضاء لا مفر منه، فإن التسليم ضرورة، فإذا أعطي العبد القدرة على تحمل شدة البلاء، ثم أجر عليها من الكريم الحليم – سبحانه – فقد أجزل ربه العطاء له، "روي عن الحسن أنه كان يقول: الحمد لله الذي أجرنا على مالا بد لنا منه، وأثابنا على ما لو كلفنا غيره لصرنا فيه إلى معصيته"(٤).

فهذه الرؤية ترتكز على الرضا والشكر، وهما من معالم اليقين.

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١٩٠/٣، دار الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ٦٢/٣، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) الفاضل للمبرد، ط٣، دار الكتب المصرية، ١٤٢١هـ.

(٣) التعازي للمبرد / ٤٨، تحقيق محمد الديباجي، ط١، ١٩٧٦.

(٤) السابق /٤٦.

وحين ينجو المبتلى من ضيق الأفق، ويستطيع التخلص من انحسار الرؤية، يستعلى فوق ألمه، وتتسع نظرته لتشمل جانبي الحياة معا، فيتجاوز (الممنوع) إلى (الممنوح)، والعسر إلى اليسر، وما حرم منه إلى ما وهب له.

بل يتجاوز النظرة الجزئية إلى حاله في البلاء، بالتفاتةٍ يرزقها إلى من هم أشد بلاء، فيرى نعمة الله في لطفه به، فيلهج حمدا لربه على السراء والضراء.

إنها النظرة المتفائلة التي ترى النصف المملوء من الكوب، الراضية بعطاء الله، المتيقنة بالقاعدة الربانية الحكيمة "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم"(١).

"قال إسحاق بن أيوب وعامر بن حفص ومسلمة بن محارب، قالوا: قدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد بن عروة، فدخل محمد بن عروة دار الدواب فضربته دابة فخر ميتا، ووقع في رجل عروة الأكلة، ولم يدع ورده تلك الليلة، فقال له الوليد: اقطعها. قال: لا، فترقت إلى ساقه، فقال الوليد: اقطعها وإلا أفسدت عليك سائر جسدك، فقطعت بالمنشار، وهو شيخ كبير لم يمسكه أحد، فقال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا.

وقدم على الوليد تلك الأيام أقوام من بني عبس فيهم رجل ضرير، فسأله الوليد بن عبد الملك عن عينه، فقال: بت ليلة في بطن واد ولا أعلم في الأرض عبسيا يزيد ماله على مالي، فطرقنا سيل؛ فذهب بما كان لي من أهل ومال وولد، غير بعير وصبي مولود، وكان البعير صعبا، فندّ البعير، فوضعت الصبي، واتبعت البعير، فلم أجاوزه إلا قليلا حتى سمعت صيحة ابني، فرجعت إليه ورأس الذئب في بطنه يأكله، واستدرت إلى البعير لأحبسه فنفحني برجله

(١) البــقرة /٢١٦.

فأصابني، فحطم وجهي، فذهبت عيناي، فأصبحت لا مال لي ولا أهل ولا بصر ولا ولد.

فقال الوليد: انطلقوا به إلى عروة فيخبره، حتى يعلم أن في الناس من هو أشد بلاء منه.

وشخص عروة إلى المدينة، فأتته قريش والأنصار يعزونه، في ابنه ورجله، فقال له عيسى بن طلحة بن عبيد الله: أبشر يا أبا عبد الله، قد صنع الله بك خيرا، والله ما بك حاجة إلى المشي، قال: ما أحسن ما صنع الله إلى؛ وهب لي سبعة بنين فمتعني بهم ما شاء، ثم أخذ واحدا وترك ستة، ووهب لي ستة جوارح، فمتعني بهن ما شاء، ثم أخذ واحدا وأبقى لي خمسة؛ يدين ورجلا وسمعا وبصرا، ثم قال: اللهم لئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت"([1]).

وهب عروة (رضي الله عنه) حال (الرضا)، وهو جنة العارفين، تغذيه نظرة واقعية لنعم ربه عليه، فرأى أولاده الستة الباقين، وجوارحه المعـــــافاة، إلى جوار فقيده وقدمه التي قطعت، فلهج قلبه ينطق بلسان حاله: (لئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت).

ومن لطائف القدر، أن يسوق الله (عز وجل) إلى الوليد بن عبد الملك ذلك العبسي الضرير، ذا المحنة القاسية، التي صار بعدها (بلا أهل، ولا مال، ولا ولد، ولا بصر) لتكون تعزية – بالواقع لا بالخيال، وبالحال لا بالمقال – لعروة الصابر، ذلك حين اتسع أفق الرؤية وانفسح المجال لشمول النظرة، فتأسى المبتلى عن محنته بمحنة غيره، وتأكد شعور(الرضا)، وانزاحت عن العقل والقلب حرقة الفقد ولوعة الحرمان.

---

(١) التعازي للمدائني /٥٥.

ويروي الجاحظ القصة بشكل آخر، فيذكر أن عيسى بن طلحة بن عبيد الله (رضي الله عنهما) قال لعروة: "والله ما كنا نعدك للصراع، ولقد أبقى الله لنا أكثرك؛ أبقى لنا سمعك وبصرك، ولسانك، وعقلك، ويديك، وإحدى رجليك.

فقال عروة: والله يا عيسى ما عزاني أحد بمثل ما عزيتني به."(١)

والإضافة هنا أن التعزية من "عيسى بن طلحة" تركز على (عدم حدوث عجز وظيفي في حياة المصاب) إذ العضو المفقود لا يمثل له ضرورة قصوى، بدونه تتعطل الحياة ويتوقف مسارها (ما كنا نعدك للصراع)، وتكتمل المسلاة بموازنة المفقود بالموجود.

ولقد وقعت تلك اللمسة الحانية والإشارة الخفيفة موقعها من نفس المبتلى، فشهد مقسما، بأنها أتاحت له رؤية جديدة، وأقشعت غيمة داكنة من الألم والأسى.

والرجال أقوى على الصبر، وأقدر على ضبط مشاعرهم،لما جبلوا عليه من تغليب العقل والحكمة على العاطفة المهتاجة، لكن لكل قاعدة شواذ؛ فقد ذكر المدائني قصة امرأة مات ابنها "فحسن عزاؤها وصبرت، فقال لها رجل: كنا نرى الجزع في النساء، ولقد صبرت وكرمت! قالت: يا عبد الله ما ميز أحد بين صبر وجزع إلا وجد بينهما منهاجا غير متقارب؛ أما الصبر فحسن العلانية محمود العاقبة، وأما الجزع فصاحبه غير معوض عوضا، ولو كانا رجلين في صورة لكان الصبر أولاهما بالغلبة، على الحسن في الخلقة والكرم في الطبيعة"(٢).

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٤٦/٢.

(٢) التعازي للمدائني / ٨٠.

ودوافع التصبر لدى هذه المرأة منطقية واقعية، وهي بذلك تضيف بعدا آخر يؤكد ندرة هذا النموذج النسوي، فهي لم تكتف بالتصبر على الثكل، بل عللته تعليلا أقرب إلى منطق المنفعة والمصلحة! فلطف مظهر الصبور، وقبوله بين الناس، وتأمله العاقبة الطيبة وانعدام الجدوى من الجزع، ثم تشبيه الصبر والجزع برجلين يختار أحدهما.. كل ذلك يدل على نفسية ثابتة وجنان هادئ، لم يزعزعه ثكل ولا هيجه فقد.

وإذا وازنا بين هذا القول وبين فعل النساء في الجاهلية عند وقوع المصائب وجدنا بونا شاسعا، فقد كانوا "إذا بالغوا في الجزع حلق النساء رؤوسهن، ولطمن خدودهن بالنعال"(١).

وقد يقال: إن الإسلام أبطل دعوى الجاهلية ومساخطها، ولكن التغير التام في طبيعة (امرأة) ثكلى، تصبر، ويبلغ صبرها أن تفسر وتحلل وتميز العواقب – هو أمر يدخل في باب القليل النادر.

وتعد تجربة فقد الوالد لابنه من أشد تجارب المحن في أدب التعزية، وقد ظهر ذلك بوضوح في وفاة إبراهيم بن النبي (ﷺ) فقد تعزى عند وفاته بقوله:

"تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون"(٢)

ولثقل هذه التجربة نرى التعزي فيها تتعدد مداخله، منها الالتجاء إلى الاحتساب والتسليم، والفرار إليه عند الصدمة الأولى وتحقيق درجة (الرضا)، وإنما يظهر ذلك حين تطول المحنة وتنتقل من مرض إلى ثكل، والوالد المبتلى

(١) التعازي للمبرد / ١٢٨.

(٢) صحيح مسلم ٤ / ١٨٠٧، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

يعايش الحالين، ويرى فلذة كبده تنفلت من بين يديه، ولا حيلة له، هنا يبرز إخبات الربانيين، وتتحقق مراتب العارفين.

"عن عبد الرحمن بن عثمان قال: دخلنا على معاذ بن جبل (ﷺ) وهو قاعد على رأس ابن له يجود بنفسه، فما ملكنا أنفسنا أن ذرفت أعيننا وانتحب بعضنا، فزجره معاذ، وقال: مه! فوالله لعلم الله برضاي بهذا أحب إلي من كل غزوة غزوتها مع رسول الله (ﷺ) فإني سمعته يقول: "من كان له ابن، وكان عليه عزيزا وبه ضنينا، فصبر على مصيبته واحتسبه، أبدل الله الميت دارا خيرا من داره، وقرارا خيرا من قراره، وأبدل المصاب الصلاة والرحمة والمغفرة والرضوان." فما برحنا حتى قضى الغلام، حين أخذ المنادي في النداء لصلاة الظهر، فرُحنا نريد الصلاة، فما جئنا إلا وقد غسله وحنطه وكفنه، ودخل بسريره، غير منتظر لشهادة الإخوان ولا لجمع الجيران، قال: فلما بلغنا ذلك تلاحقناه، فقلنا: يغفر الله لك يا أبا عبد الرحمن؛ هلا انتظرتنا حتى نفرغ من صلاتنا ونشهد ابن أخينا! فقال: أمرنا ألا ننتظر بموتانا ساعة، ماتوا من ليل أو نهار، والإذن فيهم من نعي الجاهلية...ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، في الله خلف من كل هالك، وعزاء من كل مصيبة، ودرك لكل ما فات، وقال: سمعت أبا القاسم (ﷺ) يقول: من أصيب بمصيبة فدعا عليها ويلا غضب الله عليه، ومن لطم عليها وجها احتجب الله عنه، ومن خرق عليها ثوبـــــا خرق دينه، ومزقه، وبدده"([1])

ونلمح في هذه القصة رسوخ قدم الصحابي الجليل في مقام (الرضا)، واستشعاره قيمة هذه المرتبه (لعلم الله برضاي بهذا أحب إلي من كل غزوة غزوتها مع رسول الله (ﷺ).

---

(١) التعازي للمبرد / ١٦٨.

كما نلمح تبرؤه من الجزع أن يظهر حتى علي من يعزونه، فزجرهم حين انتحب بعضهم، وذكرهم بما يجب علي المؤمن من صبر واحتساب.

ولعلنا نعجب أن يكون المبتلي هو الذي يعظ ويذكر المعزين، ولكنه دور ورثة النبوة، من العلماء الربانيين، ينطق علي لسانهم الكتاب، وتتمثل في مسلكهم السنة، ويتربى المجتمع بكلماتهم ولفتاتهم.

وهناك مشهد آخر للتعزي في فقد الابن، يشارك فيه الولد أباه في التسليم بالقضاء، تتجلي فيه أروع معاني الصبر؛ إذ يعالج الطرفان المصيبة، ويشهدان مراحلها، ويريان تحققها، ولا يزيدهما ذلك إلا إخباتا ورضا.

"دخل عمر بن عبد العزيز علي ابنه عبد الملك، وكان موته بالطاعون، وكانوا يقولون: إذا مس الطاعون – وهو قرحه – فوجد لينا طمع لصاحبه في البرء منه، وإن كان خشنا يئس من صاحبه، فدخل عمر علي ابنه فقال: دعني أمس قرحتك، فكره عبد الملك أن يمسها أبوه فيجزع، وكانت خشنه، فقال: أو تعفيني يا أمير المؤمنين فعلم عمر لما منعه، فقال: ولم يا بني؟ فوالله لأن أقدمك فأجدك في ميزاني أحب إلي من أن تقدمني فتجدني في ميزانك، فقال: وأنا– والله –يا أمير المؤمنين، لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب،فلمسها، فقال: يا عبد الملك، الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، فقال: ستجدني– إن شاء الله– من الصابرين"(١).

إن الذي يميز المشهد هنا هو ذلك الحوار بين الابن والوالد،في محور بالغ الحساسية،هو طبيعة المرض ومدي الأمل في البرء منه، وربما أخفي (الطبيب) فضلا عن (الأب) خطورة الحالة عن المريض حني لا ينهار، ولكن الموقف الإنساني هنا تتمثله وتؤديه قلوب موصولة بربها، راضية بقضائه، مستسلمة له،

(١) التعازي للمبرد / ٧٩.

فهو نموذج متفرد يحاول الابن فيه – رعاية لمشاعر أبيه – أن يخفي الحقيقة عنه، فتظهر الحقيقة معلنة عن نفسها في علامة المرض الواضحة.

وتستعلن معالم اليقين علي لسان الأب والابن معا، تتمثل في الأب احتسابا للأجر، وطلبا لما عند الله تعالي (لأن أقدمك فأجدك في ميزاني أحب إلي من أن تقدمني فتجدني في ميزانك)، وفي الابن طاعة وتسليما لله، وتأدبا وبرا مع الأب في أشد ساعات المحنة (و أنا – والله – يا أمير المؤمنين، لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب).

ويذكرنا هذا المشهد بموقف (إبراهيم الخليل) وابنه الذبيح (إسماعيل) (عليهما السلام) و تسليمهما المطلق لأمر الله تعالى، يتجلى ذلك في عبارة (إسماعيل) (عليه السلام) التي جاءت على لسان الابن (عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز): "ستجدني– إن شاء الله– من الصابرين".

وقد يبلغ التسليم لله – تعالى – عند البلاء أن يزجر الوالد المبتلى بفقد ابنه من استولى عليهم الجزع من أهله، فيذكرهم بحقيقة فناء الخلق، ووجوب خضوعهم لقضاء الحق سبحانه.

"لما مات ذر بن عمر الهمذاني – وكان موته فجأة – أتاه أهل بيته يبكونه، فقال: مالكم؟ إنا – والله – ما ظلمنا، ولا قهرنا، ولا ذهب لنا بحق، ولا أخطئ بنا، ولا أريد غيرنا، وما لنا على الله من معتب"(١).

ولكن الطاقة العاطفية المشتعلة لدى الوالد الحزين تظهر بشكل لا يصادم التسليم للقضاء، ويرقى عن أن يكون جزعا مسخطا، إنه يفجر تلك الطاقة على قبر ولده دعاء حارا، تتداخل فيه رحمة الأبوة مع الرضا بالقدر، ويزكي ويدعم

(١) التذكرة الحمدونية، لمحمد بن الحسن بن حمدون البغدادي، ٤ / ٢٤٥، ط١، دار صادر ١٤١٧ هـ.

أحدهما الآخر في مشهد إنساني رائع، تتصل فيه الدنيا بالآخرة، وتتنـــــدي فيه رحبات الأرض برحمات السماء، إذ يقول:

"اللهم إنك وعدتني الثواب بالصبر على ذر، اللهم فعلى ذر صلواتك ورحمتك، اللهم إني قد وهبت ما جعلت لي من أجر على ذر لذر، صلة مني له؛ فلا تعرفه قبيحا، وتجاوز عنه فإنك أرحم الراحمين، اللهم وإني قد وهبت لذر إساءته إلـــــي، فهب له إساءته إليك، فإنك أجود مني وأكرم"(١).

إنه توظيف لمعالم العقيدة واليقين، يرطب القلب ببرد الروح والرحمة، في هاجرة المصيبة ولفحها، ويرقى بتجربة (الفقد) الإنسانية إلى رحبات نورانية موصولة بالملأ الأعلى.

ونرقى في سلم الإخبات والتسليم درجة، فنرى (الأب) الضنين بولده يعد نفسه لتلقي أمر الله فيه إن حل، والتسليم لقضائه إن حم، في لحظة مفعمة بالمشاعر الجياشة، يؤكد فيها على مكانة ولده في قلبه، وكأنه – في اللحظة ذاتها – يتعبد لربه بتقديم أغلى ما عنده..

"رأى سعيد بن جبير ابنه يطوف بالبيت، فقال: هذا أعز الخلق عليّ، وما شيئ أسر إلي من أن يكون في ميزاني"(٢).

وللموقف رواية أخرى:

قال سفيان عن حميد الأعرج: رأيت سعيد بن جبير يقول في ابنه – ونظر إليه –: إني لأعلم خير خلة فيك، قيل: وما هي؟ قال: يموت فأحتسبه"(٣).

---

(١) السابق.

(٢) التعازي للمبرد / ١٩٨.

(٣) التعازي للمدائني / ٥٤.

إنها رؤية بعيدة المدى، تتخطى الدنيا إلى الآخرة، وتصل بينهما في حال إيمانية راقية، تتجاوز آمال الغد، وهموم الأرض، وتسبح في فضاء رحب من التسليم الرضِي.

ولا تزال قصة إسماعيل (الذبيح) ابن إبراهيم الخليل (عليهما السلام) حاضرة هنا في وعي العالم الرباني، يستلهمها، إذ يقدم (أعز الخلق) عليه، وبخاصة أنه كان (يطوف بالبيت) حيث مقام إبراهيم، وحجر إسماعيل، (عليهما السلام).

وفي محاولة التخفيف عن الأب الممتحن بالثكل، ينزل بعض المعزين وفاة الابن بمنزلة غيابه، لكنه غياب يعقب عظيم الأجر، وهي رؤية جديدة لحادثة الموت، توظف البعد الأخروي.

"عن الحسن بن دينار قال: جزع رجل على ابن له، فشكى ذلك إلى الحسن، فقال له الحسن: هل كان ابنك يغيب عنك؟ قال: نعم، كانت غيبته أكثر من حضوره، قال: فأنزله غائبا، فإنه لم يغب عنك غيبة الأجر لك فيها أعظم من هذه الغيبة! قال: يا أبا سعيد، هونت وجدي على ابني"(١).

وفي بعض الروايات أنه قال له: "فأنزله غائبا عنك، فإنه إن لم يقدم عليك قدمت عليه"(٢).

وموطن جدة الرؤية هنا تخفيف الشعور بـــ (الفقد)، وهو يرتكز على وصل (الدنيا) بـــ (الآخرة) باعتبارهما عند المؤمن نسقا واحدا، فالدنيا في

(١) السابق / ٥٩.

(٢) التعازي للمبرد / ١٩٩.

حسه مزرعة الآخرة، والموت فاصل انتقال، وليس ختام انتهاء، على حد قول أبي العلاء([1])

خلق الناس للبقاء فضلت ** أمة يحسبونهم للنفاد

إنما ينقلون من دار أعمال ** إلى دار شقوة أو رشاد

ومن هنا هان الأمر على المصاب بالثكل، فلئن كان الفراق قضاء لازما، فإن اللقاء مقدر محتوم (إن لم يقدم عليك قدمت عليه).

وبالموازنة بين حياة (الولد) ووفاته يحاول بعض المعزين تقديم رؤية جديدة، توظف المفهوم القرآني "إنما أموالكم وأولادكم فتنة"([2])، يقابله في الصبر عند الفقد "الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة"([3]).

جاء في التعازي للمدائني: "...فإن الولد ما عاش على والده حزن وفتنة، فإذا قدمه فصلاة ورحمة، فلا تجزع على ما فاتك من حزنه وفتنته، ولا تضيع ما عوضك الله من صلاته ورحمته"([4]).

ويسوقها البعض في استفهام إنكاري، يعجب من أن تكون (الفتنة) سرورا، و(الصلاة والرحمة) حزنا وألما.

"عزى (موسى الهادي) (ابراهيم الحراني) عن ابن له فقال: أيسرك وهـــو

(١) شروح سقط الزند، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ٣ / ٩٧٨، ط٣، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧.

(٢) التغابن / ١٥.

(٣) البقرة / ١٥٧ .

(٤) التعازي للمدائني / ١٠١.

فتنة، ويسوءك وهو صلاة ورحمة؟!"([1]).

ويفصل بعضهم هذا المعنى فيقول: "... أما بعد فإن الله أعطاك هبته، وجعل عليك أدبه ومؤنته، وأنت تخشى فتنته، فاشتد بذلك سرورك، فلما قبض الله هبته، وكفاك أدبه ومؤنته، وأمنت فتنته، اشتد لذلك جزعك، فأقسم بالله لو كنت تقيا لعزيت على ما هنئت عليه، ولهنئت على ما عزيت عليه"([2]).

ونقطة الارتكاز في هذا المضمون هي محور اهتمام المعزّى،فإن كان ذلك الاهتمام منصبا على الدنيا، فإنه يعزى على فقد متعة الولد، وإن بعثته تقواه على النظر إلى الآخرة شغلته الأمانة والمسؤولية عن اللذة وزينة العاجلة "المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا "([3]).

وفي الزاوية الأخيرة من (مضامين التعزي والتصبر على فقد الولد) نرى ذلك التعليل المعبر من امرأة ثكلى، سئلت: "ما أحسن عزاءك عن ابنك؟ فقالت: إن فقدانيه آمنني من المصائب بعده"([4]).

وتعليلها يدل على مدى تعلقها بفلذة كبدها، واحتراقها لفراقه، فقد كان قرة العين وغاية المنى، فلما فقدته هانت بعده كل مصيبة، لقد بلغت مشاعر الأسى قمة مُنحناها، فانقلبت تسليا وتعزيا، إذ لم يعد في حياتها ما تخشى فوته، أو تتمنى بقاءه.

---

(١) الإعجاز والإيجاز، للثعالبي /٨٤، مكتبة القرآن، القاهرة، بدون ت.

(٢) التعازي للمبرد /٩٦.

(٣) الكهف /٦٤.

(٤) التعازي للمدائني / ٨٤.

المحور الثاني
المضامين الأساسية

أولا:- لله ما أخذ وله ما أعطى:

تطور ت العقلية العربية في تعاملها مع الدنيا وغِيرها، والأيام ودواهيها، وكان العامل الرئيسي في هذا التطور هو نور الإسلام، الذي يوضح الحقائق، وينفي الأوهام، ويربط الكيان البشري بربه، الحكيم القدير، ويحضه على التسليم له في كل شأنه، فتنجو نفسه من ضيق القلق والجزع والكمد إلى فسحة الرضا والروح.

وقد جاء ذلك التطور من خلال تجارب عملية وقعت للنبي (ﷺ) وصحبه الكرام.

روى البخاري في صحيحه عن أسامة بن زيد (رضي الله عنه) قال: "كنا عند النبي (ﷺ) إذ جاءه رسول إحدى بناته يدعوه إلى ابنها في الموت، فقال النبي (ﷺ): ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شييء عنده بأجل مسمى؛ فمرها، فلتصبر ولتحتسب، فأعادت الرسول أنها قد أقسمت عليه لتأتينها، فقام النبي (ﷺ) وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل، فدفع الصبي إليه ونفسه تقعقع كأنها في شن، ففاضت عيناه، فقال له سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء"(١).

وقد نقلت الرواية صورة حية للمشهد النبوي الكريم في التعامل مع هذا الموقف الإنساني، ولخصت حالة الطفل بعبارة (ونفسه تقعقع كأنها في شن) أي: تضطرب وتتحرك، أراد: كلما صار إلى حال لم يلبث أن ينتقل إلى أخرى

(١) صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير، ٩ / ١١٥ ، ط ١، دار طوق النجاة، بدون ت.

تقربه من الموت([1])، والشن: القِربة الخلقة، والقعقعة: حكاية حركة لها تسمع صوتا([2])، إذا حركت من يبسها، لأن القربة الخلقة تصبح جافة الجلد نسبيا، فإذا حركت أحدثت ما يشبه صوت (الخشخشة) وهو الصوت المراد في الحديث المذكور نتيجة معاناة الصبي طلوع الروح، ويدل على هذا الصوت ويوضحه المثل العربي (لا يقعقع لي بالشنان)، أي لا يفزعه صوتها، لأنها تحرك بين أرجل الجمل ليفزع من صوتها، قال النابغة الذبياني([3])

كأنك من جمال بني أقيش يقعقع بين رجليه بشنّ

وتعتمد الصياغة النبوية الكريمة للتعزية في هذا الحديث على التذكير بمعالم اليقين التي تخبت لها قلوب العابدين، فإن (لله ما أخذ، وله ما أعطى) تؤكد الملكية المطلقة لله (ﷻ) بطريق القصر،فليس للعبد مع إرادة الرب إلا التسليم، "ألا إن لله ما في السماوات والأرض"([4])، "ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض"([5])، فما أخذه (ﷻ) إنما هو ملكه، أعار العبد إياه، يسترده متى شاء، وتلك الحقيقة تنزل على قلب المبتلى حين يذكر بها فتكون بردا وسلاما،إذ لا محل للجزع على شيئ استرده مالكه، إنه العلاج المنطقي، يتعانق مع الحقيقة العقدية، فيثمر كشفا لغشاوة الصدمة وفاجعة الفقد.

وقدم الأخذ على الإعطاء هنا لاقتضاء المقام ذلك.

---

(١) يراجع: شرح سنن أبي داود للعيني، ٦ /٤٩، تحقيق خالد رياض ط١،١٩٩٩.

(٢) يراجع: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، مادة (ش ن ن)، تحقيق طاهر الزواوي، المكتبة العلمية ١٩٧٩.

(٣) يراجع: الكامل في اللغة والأدب للمبرد، ١ / ٣٠٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار الفكر العربي، ١٩٩٧.

(٤) يونس / ٥٥.

(٥) يونس / ٦٦.

وتروي بعض الكتب الحديثة نص رواية هذا الحديث مجتزئة منه الدعاء الوارد فقط، منتهية بقوله: (فلتصبر ولتحتسب)، لتعليم المعزين صيغة التعزية النبوية الكريمة، ولكن السياق يقتضي إتمام الرواية إلى نهايتها، إذ جاء في أولها (إذ جاءه رسول إحدى بناته يدعوه إلى ابنها في الموت)، وربما توهم القارئ أن النبي (ﷺ) أهمل إجابة ابنته في تلك اللحظة الحرجة اكتفاء بإبلاغ التعزية على لسان من أرسلته، وقد "وقع في حديث عبد الرحمن بن عوف أنها راجعته مرتين"(١)، وإنما فعله (ﷺ) تشريع لأمته.

وقد حاول بعض الباحثين تفسير ذلك بأنه (ﷺ) "كان في شغل في ذلك الوقت، أو كان امتناعه مبالغة في التسليم لربه، أو كان لبيان الجواز في أن من دعي لذلك لم تجب عليه الإجابة بخلاف الوليمة مثلا"(٢).

ومن الصعب على من يعرف رقة النبي (ﷺ) ورحمته أن يقبل التعليل الأخير، ذلك الذي يجعل إجابة دعوة كـــــ (الوليمة) مثلا مقدمة على الإجابة في الفاجعة والمصيبة، وربما كان لانشغاله (ﷺ) ببعض الشأن العام للأمة أثر في رده على رسول ابنته، إذ كان يتحمل هم الأمة وأعباءها، أو هو تعليم لنا بضرورة التسليم والرضا بشكل عملي، وعدم الفزع أو الجزع عند وقوع المكاره.

والذي يقطع بأن تأخره (ﷺ) ليس إهمالا ولا تكاسلا ولا جفاء، وإنما هو تعليم وتربية.. أنه حين بر قسمها وحمل إليه الصبي في لحظاته الأخيرة (فاضت عيناه رحمة ورقة، وقال لسعد: (رضي الله عنه) "هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده".

---

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للمباركفوري ٥ / ٤٦٠، ط٣ ١٩٨٤.
(٢) السابق.

إنها النبوة؛ تربي المؤمنين على تحمل الشدائد والبلاءات، و هي – في الوقت ذاته – تؤكد التجاوب مع الفطرة البشرية وعدم كبتها أو إنكارها.

وهو توازن شعوري، بين الانشغال بالهم العام، وعدم نسيان حقوق القرابة والرحم،ثم بين القسوة وبرد الأعصاب تجاه المصائب، والفزع والجزع والانهيار النفسي عند تلقيها.

ويؤكد مشاعر الرقة ما نقله الهروي – تعليقا على سؤال سعد (ﷺ) عن بكائه (ﷺ) (ما هذا؟).. حيث يقول: "ظن سعد أن جميع أنواع البكاء حرام، وأنه (عليه السلام) نُسي، فأعلمه النبي أن مجرد البكاء ودمع العين ليس بحرام ولا مكروه،بل هو رحمة وفضيلة، وإنما المحرم النوح والندب وشق الجيوب وضرب الخدود"(١)

وتبني العبارة الثانية في التعزية النبوية اللبنة التالية بعد التسليم للملك القيوم – سبحانه – "وكل شيء عنده بأجل مسمى" فهو (ﷻ) له الخلق والأمر، لا يقع في ملكه إلا ما يريد، وقد حدد آجالا وقدر أقدارا والكون كله خاضع لإرادته وقدره، وذلك يقتضي التسليم المطلق، مع (الأمان النفسي)، إذ توقن النفس بأن المصائب لا تقع إلا بقضاء العلي القدير، وأنه لا مجال هنا للمصادفة أو العشوائية، التي ظنها (زهير) تحكم قانون الحياة في قوله(٢)

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي بن محمد الهـروي، ٣/ ١٢٣٢، ط١، دار الفكر، ٢٠٠٢.

(٢) جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي / ١٧٦، تحقيق علي البجـاوي، دار نهـضة مصر.

فذلك القول باطل، يكذبه صريح القرآن وصحيح السنة، قال – تعالى – "لكل أجل كتاب"(١) وقال – سبحانه – "ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله"(٢)

ثم يأتي التكليف النبوي الكريم – "فمرها فلتصبر ولتحتسب" – نتيجة لما سبقه من مقدمات، وبالغا الهدف منها، تحقيقا للدواء النفسي في مواجهة المصائب، المكون من عنصرين؛ إكراه النفس على تحمل وقع البلاء من دون جزع، وتوجه النية لأن يكون ذلك التحمل ابتغاء الأجر والجزاء من الله تعالى، وهو (الاحتساب)(٣).

وهذا العنصر خطير الأثر، لأنه الفارق بين صبر (المخبتين) وصبر (المتجاسرين) الذين يسوقهم إلى الصبر إحساسهم الزائد بذواتهم؛ فيصبرون إثباتا للجلد، أو تظاهرا بالقوة النفسية، أو تكبرا عن أن يروا في حال انكسار، كما يصوره قول أبي ذؤيب(٤)

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

مع اعترافه في بيت آخر بأن الموت سينسف ذلك التجلد، ويضعضع تلك العزة، ويضع نهاية لتلك الغطرسة الزائفة(٥)

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

---

(١) الرعد / ٣٨.

(٢) التغابن /١١.

(٣) يراجع: عمدة القاري، لبدر الدين العيني، ٨ / ٧٣ دار إحياء التراث.

(٤) المفضليات، للمفضل الضبي،٤٢٢/١، تحقيق أحمد شاكر و عبد السلام هـارون، ط٦، دار المعارف.

(٥) السابق.

ما أهون الإنسان وأضعفه حين يرتكز على وهم (القوة الذاتية)، ويتغطرس بها، وينسى مولاه الوهاب المقتدر، فلا تدعه حوادث الأيام حتى تريه قوته ضعفا، وجلده خورا، واعتزازه بغير ربه ذلا ومهانة.

وليس ذلك لمجرد وقوع (الموت)، بل لتخليه عن كنف ربه، ونكوصه عن بابه سبحانه، وإلا..فإن الموت الذي عده أبو ذؤيب وحشا، ينقض عليه منتزعا منه النفس المتشبثة بالحياة.. ذلك الموت نفسه هو الذي عده النبي الكريم (ﷺ) نهاية المعاناة وبداية الراحة، حين قال لابنته (رضي الله عنها) ساعة الاحتضار: "لا كرب على أبيك بعد اليوم"(١)

إن اختلاف زاوية الرؤية ومعطياتها هو الذي ينتج ذلك التباين في التعامل مع حدث (الموت) خاصة والمصائب عامة؛ فالدنيوي المادي ينظر من زاوية نفسه الشحيحة ودنياه اللئيمة، فتهوله المصائب، ويفزعه مجرد خاطر الموت

والمرء ساع لأمر ليس يدركه والعيش شح وإشفاق و تأميل(٢)

بينما يراه الرباني من زاوية تجمع الدنيا والآخرة معا في ظلال عون الرب ورحمته، فلا يجزعه فوات شيء من حطام الدنيا ليقينه بالآخرة الباقية، ثم بوعد ربه (ﷻ) للصابرين المحتسبين من هنا كانت أهمية عنصر (الاحتساب) واقترانه بـــ (الصبر) في موجهة البلاء والمحن، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾(٣)، فنص على ضرورة الاحتساب مع الصبر.

---

(١) دلائل النبوة، للبيهقي، ٧/ ٢١٢، دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) يراجع: الإعجاز والإيجاز، ١/ ١٣٨، والبيت لعبدة بن الطبيب، وقد ذكـــر "الثعـــالبي" تعجب الفاروق عمر من بيته هذا.

(٣) الرعد/٢٢.

وإذا كان الصبر يعد علاجا نفسيا عند حلول المصائب، يحمي الكيان البشري من التمزق والانهيار(١)، فإن الإسلام يضاعف قيمته، بإضافة البعد التعبدي فيه، فيحوز الصابر ثواب التعبد مع سلامة النفس والحفاظ عليها عند زلزلة المحنة، بالالتجاء إلى ركن ركين وسند متين، وذلك إنما يتحقق بالاحتساب، الذي نصت عليه التعزية النبوية الكريمة، ولا يناله أولئك الذين يقصون البعد التعبدي، ويتخذون الصبر مجرد (علاج)، أو يعتبرونه ضرورة لـــ (الوجاهة الاجتماعية).

إن التسليم لله – تعالى – يحول حياة المؤمن إلى مكاسب دائمة، ويشحنها بطاقة (الجدوى) مهما تعاورته غِير الأيام والليالي، "عجبا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له"(٢).

ثانيا:- في الله عزاء من كل مصيبة وخلف من كل فائت:

إذا كانت حياة النبي (ﷺ) معينا لا ينضب من الدروس في مواجهة المحن، فإن وفاته كانت درسا بليغا في التعزي، تعلمت الأمة فيه من تعزية الملائكة لآل البيت النبوي الكريم – عليهم رضوان الله–ثم من تعزي الصحب الكرام، (رضي الله عنهم).

أخرج الحاكم في المستدرك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) قال: لما توفي رسول الله (ﷺ) عزتهم الملائكة، يسمعون الحس ولا يرون الشخص، فقالت: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن في الله

(١) يراجع: جدد حياتك، لفضيلة الشيخ محمد الغزالي / ٢٦ وما بعـــدها، ط٢، دار الـــدعوة بالإسكندرية ١٩٩٩.

(٢) صحيح مسلم ٤ / ٢٢٩٥.

عزاء من كل مصيبة، وخلفا من كل فائت، فبالله فثقوا وإياه فارجوا، فإنما المحروم من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"(١).

هذه الرواية للحاكم في المستدرك هي أصح ما جاء في هذا الخبر، فقد أورده المدائني في (التعازي)(٢) بزيادة يسيرة، ولكن الحافظ ابن كثير في (البداية والنهاية)(٣) ذكر ما رواه المدائني وضعف إسناده.

وقد كان مصاب الأمة في النبي الكريم (ﷺ) أعظم مصاب نزل بها، ولا شك أن آل البيت النبوي قد تحملوا من ذلك المصاب النصيب الأكبر، من هنا جاءت التعزية الملائكية، تثبيتا للقلوب، وتذكيرا بمعالم اليقين.

وارتكزت التعزية هنا على ربط القلوب بالحي القيوم – سبحانه – الدائم الباقي، "كل شئ هالك إلا وجهه"(٤)، حيث بنيت جميع الجمل فيها على التعلق بلفظ الجلالة، في صيغة (الجار والمجرور) المقدم للاختصاص، "في الله عزاء... فبالله فثقوا... "ثم في شكل المفعول المقدم (وإياه فارجوا)، فالتعزي والتصبر والثقة والرجاء هي مظاهر إخبات القلوب له (ﷻ) في المحنة، ثم يلي ذلك التحذير من التجاوز، مقرونا بتصحيح مفهوم (الحرمان) المرادف لـــ (الفقد)، فالحرمان الحقيقي ليس فقد إنسان وإنما فقد الثواب.

وهذا المقطع الأخير من التعزية (فإنما المحروم من حرم الثواب) يصرف الأبصار والقلوب إلى عدم التعلق بالأشخاص، حتى لو كان شخص النبي (ﷺ) وأن من مقتضيات صفاء العقيدة ألا ترتبط القلوب تعلقا ورجاء وأملا إلا بالله

(١) المستدرك للحاكم، ٣ / ٥٩، تحقيق مصطفى عبد القادر، ط١، دار الكتب العلمية.
(٢) التعازي للمدائني / ٤٧.
(٣) البداية والنهاية لابن كثير، ٥ / ١٩٨، تحقيق على شيري.
(٤) القصص / ٨٨.

تعالى، تحقق بذلك عبادتي (الخوف من حرمان الثواب، والرجاء في أجره – سبحانه – ورحمته ورضوانه).

ومن تعزي الصحابة الكرام (ﷺ) في وفاة النبي (ﷺ) ما قاله علي بن أبي طالب (ﷺ) بعد فراغه من غسل النبي (ﷺ) وتكفينه، فقد قال: "بأبي أنت وأمي، طبت حيا وطبت ميتا، انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد ممن سواك، من النبوة والإنباء، خصصت حتى صرت مسليا عمن سواك، وعممت حتى صارت المصيبة فيك سواء، ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك الشؤون، ولكن ما لا يدفع؛ كمد وإدبار محالفان، وهما داء الأجل، وقلا لك، بأبي أنت وأمي، اذكرنا عند ربك، واجعلنا من همك. قال: ثم نظر إلى قذاة في عينه فلقطها بلسانه،ثم رد الإزار على وجهه"(١).

وفي هذه الرواية إقرار بأثر المصاب الفادح، وتصوير للفاجعة، ولكن عليا (ﷺ) يذكر الأمر النبوي بالصبر فيمتثل له، وهو نموذج للاقتداء العملي في أشد ساعات الاختبار، فإن الصلة بين النبي الكريم (ﷺ) وعلي (ﷺ) أوضح من أن تذكر، ولذا فشعوره بالفقد مضاعف، ولكن أثر التربية النبوية يتبدى واضحا في التزام أمر النبي، وضبط النفس في أحرج الأزمات، وإنما يعظم الصبر وترقى درجته مع عظم المصيبة وضخامتها، وقد روى الترمذي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول: "من كان له فرطان من أمتي أدخله الله بهما الجنة، فقالت عائشة (رضي الله عنها) فمن كان له فرط من أمتك؟ قال: ومن كان له فرط يا موفقـــة، قالت: فمن لم يكن له فرط من أمتك؟ قال: فأنا فرط أمتي، لن يصابوا بمثلي"(٢).

---

(١) التعازي للمبرد /٤١.

(٢) سنن الترمذي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

وعن عبد الرحمن ابن القاسم قال: قال رسول الله (ﷺ): "ليعزى المسلمين عن مصائبهم المصيبة بي"(١).

ويذكر الرواة أن "عبد الله بن أراكة الثقفي أصيب في ولد له، فقال يتعزى عن مصابه:

ولا تبك ميتا بعد ميت أجنه علي وعباس وآل أبي بكر

يريد النبي (ﷺ)"(٢).

"وكان أبو بكر (رضي الله عنه) إذا عزى رجلا قال:ليس مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة، الموت أشد ما قبله وأهون ما بعده، اذكروا فقد رسول الله (ﷺ) تهن عندكم مصيبتكم، صلى الله على محمد، وعظم الله أجركم"(٣).

وفي تعزية الصديق (رضي الله عنه) نلمح بعد تخفيف المصيبة بتذكر فقد النبي (ﷺ) معاني مركزة متتابعة، وهي سمة عامة في كلام أبي بكر (رضي الله عنه).

فتأكيد أثر العزاء عند النوازل، وانعدام جدوى الجزع، معنيان يدفعان إلى الصبر والرضا، كما أن لفت النظر لما بعد الموت من الشدائد والأهوال، يعيد إلى الغافل رشده ويحول اهتمامه من الجزع على غيره إلى الهم بمصيره، والتفكير فيما سيؤول إليه، وكيف ستكون خاتمته، ثم يأتي الدعاء بزيادة الأجر مقرونا بالصلاة على النبي (ﷺ) ترطيبا للقلوب وتطييبا للخواطر.

وفي أسلوب التعزية لدى الصديق (رضي الله عنه) تنويع يمزج الخبر بالإنشاء، والقواعد الثابتة بالتوجيه المباشر، "ليس مع العزاء... ولا مع...الموت أشد...

---

(١) الزهد، لابن المبارك، ١ / ١٥٨،تحقيق عبد الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية.

(٢) التعازي للمبرد / ٤٢.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ، ٣ /١٩٠، دار الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ.

وأهون..."ثم يلي ذلك "اذكروا فقد رسول الله (ﷺ)..."، وكأنه رتب هذا التوجيه على ما أسسه من مفاهيم سبقته.

وتتكرر فكرة التعزية لدى المصيبة بتذكر فقد النبي (ﷺ) عند الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فقد روي عنه أنه كان إذا عزى قوما قال: "إن تجزعوا فأهل ذلك الرحم، وإن تصبروا ففي ثواب الله عوض من كل فائت، وإن أعظم مصيبة أصيب بها المسلمون محمد (ﷺ) وعظم أجركم"(١).

وقد استخدم الإمام علي في تعزيته (إنْ) المفيدة للشك، لشعوره بثقل المصيبة، واستخدمها أولا مع الجزع، ليس تبريرا له، وإنما التماسا للعذر، ثم إنه رغّب في الثواب، وحض على الصبر فجعله الأولى والأجدر، إذ فيه العوض مما فات، وهو ما لا يدرك بالجزع، والفوات هو علة الحسرة.

إنه نقاش عقلي وإقناع منطقي قائم على تقسيم رد الفعل، وترتيب الحكم عليه، وتلك سمة (القاضي) علي (رضي الله عنه)؛ التماس للعذر من جانب، يرفع الحرج نسبيا عن كاهل المبتلى بالفقد،وترغيب في الصبر من جانب آخر مع تلطف في العرض ورقي في التناول.

ثم يضيف عنصرا آخر يخفف وقع المصيبة، وهو تذكر ما هو أشد منه، وهو فقد النبي (ﷺ) فتزيد كفة الصبر وترجح على الجزع، ثم يتبع ذلك بالدعاء بعظم الأجر تطييبا للخواطر وترطيبا للقلوب.

إنه منهج في معالجة النفوس المكلومة والقلوب الجريحة، يتناولها بتؤدة ولطف، مع انتقاء اللفظ وحسن تنسيق المضمون.

---

(١) السابق.

ولأهل اليمن صيغة في التعزية، استحسنها عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) لما فيها من عناصر نفسية، تهدئ الخواطر، وتذهب إحساس الفوت، وتثبت القلوب ببرد اليقين.

فقد ذكر الجاحظ أنه كان يقول "ما أحسن تعزية أهل اليمن! وتعزيتهم: لا يحزنكم الله ولا يفتنكم، وأثابكم ما أثاب المتقين الشاكرين، وأوجب لكم الصلاة والرحمة "(١).

والحزن ثم الفتنة أثران مباشران لوقوع المصائب، لا ينجو منهما العبد إلا برحمة الله – تعالى – وعونه، لذا بدؤوا بالدعاء بصرفهما عن المبتلى، ثم أتبع ذلك بالنتيجة المتوقعة، إن حفظ العبد من الفتنة والبلاء، وهي حصول ثواب الكريم سبحانه للمتقين الشاكرين، والوصف بالشكر إلماح إلى نعمة الله في صرف الحزن والفتنة المقتضية للشكر، ثم يتفضل الكريم الرؤوف (عز وجل) على عبده بأن يشمله برحمته وصلاته،وفي ذلك إشارة للآية الكريمة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ﴾(٢).

والتعزية بصيغة الجمع (لا يحزنكم، ولا يفتنكم، أثابكم، أوجب لكم) توحي بأن المصيبة حين تقع لا تخص فردا واحدا، ولذا فمن الأكمل من الناحية الاجتماعية أن توجه الصيغة لمجموع أهل بيت المعزى، وهذا الملمح واضح في تعزية الملائكة لآل بيت النبوة عند وفاته (ﷺ)، وفي تعزية كل من الصديق وعلي (رضي الله عنهما).

---

(١) البيان والتبيين، ٣ / ١٩٠.

(٢) البقرة / ١٥٧.

ويتأسى المؤمنون في تعزياتهم بجيل الصحابة (ﷺ) فيعزي أحدهم أخاه بطلب عقبى الثواب من الله – تعالى – للمبتلى، وحسن المآب للفقيد، حيث يقول: "أعقبك الله من فراقه عظيم الثواب، وأعقبه من دنياه حسن المآب"(١).

والمضمون هنا يدور حول العوض والعقبى، المأمولين من الكريم سبحانه، وفي الصياغة سجع وتوازن، يكونان صورة من الإيقاع الجميل، كما أنها تقسم حدث الوفاة قسمين من جهة أثره،طرفه الأول عند الفقيد، والطرف الآخر عند المعزَى، ويتمنى المعزِي لكل منهما نتيجة مرضية، وعاقبة منجية، فلمن فارق (حسن المآب)، ولمن بقي عظيم الثواب، والتوازن متولد من تشابه الجملتين تركيبا.

ويعزي آخر فيقول: "لا يصفر ربعك، ولا يوحش بيتك، ولا يضيع أجرك، رحم الله متوفاك، وأحسن الخلافة عليك"(٢).

وفي التعزية هنا أمنيات دنيوية، خلطت بغايات أخروية، فدوام عمران الدار، وعدم استيحاشها بالفراغ، أمان تتمنى، بينما حفظ الأجر، وتحقق العوض، ونزول الرحمة، غايات ترجى بفضل الله – تعالى – ومنته، لا تحدها أزمنة الدنيا، ولا تخوم الأرض.

ثالثا:- الماضي فرط للباقي:

إن تذكر الحقائق يجلي عن النفس ما ران عليها من غشاوة الغفلة، وينبهها من سكرة الفاجعة، ولذا كانت (الذكرى) في لحظات الهموم ضرورة ملحة، يلهمها العارفون بربهم، فتثبتهم في المحنة، وتقويهم على تحمل شدائدها.

---

(١) التذكرة الحمدونية / ٢٥٥.

(٢) عيون الأخبار، ٣/ ٦٨.

وسيد العارفين محمد (ﷺ) يضرب لنا المثل في التعزي عن المصيبة بتقرير حقيقة الحياة، وأنها محدودة الأجل، وأن البشر فيها ليسوا إلا ظاهرة سريعا ما تختفي.

ففي مشهد معبر، ينقل الرواة لحظة شديدة الحساسية في حياة النبي (ﷺ) الوالد، ذلك حين "وَضع ابنه [إبراهيم] في حجره وهو يجود بنفسه"(١)، وهو تجسيد حي للأبوة، وتصرف فطري، يعبر عن عمق الصلة النفسية، التي يزكيها القرب الجسدي (في حجره)، ودليل على ذلك الرباط الشعوري، ومؤشر – في الوقت نفسه – لحجم المعاناة وشدة المصيبة، يرصد مظهرها في دمع العين، والاعتراف بالحزن المكنون في القلب "ثم دمعت عينه، فقال: تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون"(٢).

لكنه (ﷺ) يعلمنا كيف نلجأ إلى موعود الحق – سبحانه – لنرطب قلوبنا إذا لفحنا هجير المصيبة، يصوغ ذلك في جملة شرطية، تمنع وقوع الجواب فيها لتحقق وتيقن وقوع شرطها "لولا أنه موعد صادق، و وعد جامع، وأن الماضي فرط للباقي، وأن الآخر لاحق بالأول .. لحزنا عليك يا إبراهيم"(٣)

و (الموعد الصادق) يشمل حتمية الفراق في الدنيا، والتأميل في الملتقى عند الله – تعالى – فالموت انتقال لا فناء، ومرحلة لا انتهاء.

وأما (الوعد الجامع) فهو الذي لا ينجو منه أحد، ولا يملك الفرار منه حي، صغيرا كان أم كبيرا، يؤكده رحيل السالفين وانتظار الباقين.

---

(١) التعازي للمدائني/ ٢٢.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

وفي العبارة النبوية الكريمة، توازن وتطابق، يكسوان الصياغة بوشاح موسيقي محبب.

ويمضي اللاحقون على سنن السابقين، ويذكر بعضهم بعضا بحقيقة الفناء المكتوبة على الخلق، فيقول قائلهم معزيا "ذهب أبوك وهو أصلك، وذهب ابنك وهو فرعك، فما حال الباقي بعد أصله وفرعه ؟!"(١).

وتبلغ هذه الحقيقة مبلغها حين تتحول إلى يقين، يشكل سلوك الصابرين المخبتين، ويعصمهم من الصدمة عند وقوع الفاجعة، حتى أنه ينعى "مجزأة بن ثور(٢)، إلى أخيه شقيق بن ثور، فكأنه لم ير ذلك فيه، فقال له صاحب البريد: هل نعاه إليك أحد قبلي؟ قال: نعم، أخبرنا الله – جل ذكره – أنا كلنا سنموت"(٣)

ويعزى أحدهم في ولد له، فيقر بحقيقة الدنيا، مسليا نفسه عما نزل بها، قائلا: "هكذا الدنيا؛ تصبح لك مسرة، وتمسي عليك متنكرة"(٤)

ولما توفي (أيوب بن سليمان بن عبد الملك) الخليفة الأموي، جزع سليمان، فعزاه أحد زواره بقوله: "إن امرأ حدث نفسه بالبقاء في الدنيا، وظن أنه يعرى من المصائب لغير جيد الرأي"(٥).

---

(١) التعازي للمبرد / ١٦١.

(٢) استشهد يوم (تستر)، بعد أن دخلها متنكرا، فعرف طرقها ثم عاد إليها بجنود فتحوا المدينة وقتلوا الحراس. ينظر: أسد الغابة، لابن الأثير،٥ / ٦٠، ط١، دار الكتب العلمية، و الأعلام للزركلي، ٥ / ٢٧٩، ط ١٥، دار العلم للملايين.

(٣) التعازي للمبرد / ٢٠٠.

(٤) السابق / ١٥٧.

(٥) السابق / ٤٦.

رابعا:- بين الصبر و السلو تتفاوت المراتب:

الصبر حبس النفس على المكروه، أي تجرع مرارة المصيبة وتحمل آثارها؛ بينما السلو نسيانها والذهول عنها، والانشغال بغيرها، وتجاز مرحلتها نفسيا([1]).

وكلا الأمرين علاج نفسي عند المحن يتعاطاه المبتلون، لكن بعضهم يفضل الصبر، لدلالته على الطاقة النفسية المستعلية على المصيبة، فهو من شيم الحر.

قال علي (ﷺ): "من صبر صبر الأحرار، وإلا سلا سلو الأغمار"([2])،

وقال للأشعث بن قيس: "إن صبرت صبر الأكارم وإلا سلوت سلو البهائم"([3]).

ونقل المدائني عن ابن جريج قال: "من لم يتعز عن مصيبته بالصبر والاحتساب سلا كما تسلو البهائم"([4]).

فالسلو هنا غلبة أحداث الحياة ومرور الأيام على الذهن، بحيث تمحو تدريجيا من الذاكرة حادث الفقد، والإشارة إلى(البهائم) هنا – على قسوتها – دقيقة، إذ يتطلب الصبر عقلا يستوعب ويضبط السلوك ساعة البلاء، وقلبا مؤمنا يسلم لربه ويحتسب الأجر عنده، وليس لدى البهائم من ذلك شيء، وإنما تتوالى الأشياء عليها ينسي بعضها بعضا.

---

(١) "سلاه وسلا عنه وسُليه سلْوا وسُلُوا وسُلِيا وسُلوانا: نسيه، وأسلاه عنه وسلاه فتسلى..." اللسان (س ل و).

(٢) التذكرة الحمدونية، ٤ / ٢١٠.

(٣) السابق.

(٤) التعازي للمدائني / ٧٨.

وربما استعين بعلاج مادي على نفاذ العلاج النفسي بالسلو، فقد نقل صاحب (اللسان) عن (ابن سيده) قوله: "السَلوة والسُلوانة كلاهما خرزة شفافة، إذا دفنتها في الرمل ثم بحثت عنها رأيتها سوداء، يسقاها الإنسان فتسليه"(١).

ودلالة ذلك ضعف القوة النفسية عن تحمل المصيبة، مما يلجئ إلى التماس أسباب مادية تقلل من شعوره بالصدمة، وتلهيه عنها.

وهناك نسبة من التداخل بين (الصبر) و(السلو) في عبارات المعزين وفي الواقع العملي، فقد يعبر بعضهم عن (السلوان) بالصبر، أو العكس.

يروي المبرد أن الفاروق (ﷺ) قال لمتمم بن نويرة: "ما بلغ من جزعك على أخيك؟ قال: بكيته سنة حتى أسعدت عيني الذاهبة عيني الصحيحة، قال عمر: ثم مه؟ قال: ثم صبرت"(٢).

فالصبر بعد بكاء سنة ليس إلا سلوا، لأن مرور الزمن عامل مهم فيها، وهو مساعد على النسيان.

وتحديد فترة البكاء بعام أمر متوارد في قصص ذوي المحن، وله عمق في تاريخنا الإنساني، فقد "مات لأرطاة بن سهية المري ابن فأقام على قبره حولا، يأتيه في كل غداة فيقول: يا عمرو، إن أقمت حتى أمسي هل أنت راحل معي؟ ثم يبكي وينصرف، ويأتيه عند المساء فيقول مثل ذلك ثم ينصرف فلما كان في رأس الحول تمثل بقول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر"(٣)

---

(١) اللسان (س ل و).

(٢) التعازي للمدائني / ٤٥.

(٣) التعازي للمبرد / ١٥٩، و: ديوان لبيد ٥١/١، ط١، دار المعرفة ٢٠٠٤.

ويروي المبرد أن امرأة على بن الحسين (ﷺ) "ضربت على قبره فسطاطا فأقامت حولا، ثم رجعت إلى بيتها، فسمعوا قائلا يقول: أدركوا ما طلبوا؟ فأجابه مجيب: بل يئسوا فانصرفوا"(١).

وربما قدمت التعزية على البلاء المتوقع رجاء أن تكون مسلاة عنه عند وقوعه، ويعبر هنا عن (الصبر) بـــــ (السلو) في مقابل تسمية (السلو) صبرا في خبر متمم بن نويرة السابق.

"**عن عبد الملك بن عمير قال:** دخل عبد الله بن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر (ﷺ) فقال: يا أمه، قد خذلني الناس، فلم يبق معي إلا من ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ... قالت: يا بني، أنت أعلم بنفسك، فامض على حقك ولا تمكن غلمان بني أمية من نفسك، فقال: وفقك الله؛ هذا رأيي، وإني لحسن الظن بربي، فإن هلكت فلا يشتد جزعك علي، فإن ابنك لم يتعمد إتيان دنية، ولا عملا بفاحشة... ولم يكن شيئ آثر عنده من رضا ربه، اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي؛ أنت أعلم بي، ولكني أقوله تعزية لتسلو عني"(٢).

فهذه تعزية مسبقة، وتهيئة لأم تتوقع الثكل في ولدها، وقد عبر هنا بالسلو والمراد الصبر.

وقريب من ذلك موقف عمر بن عبد العزيز في وفاة ابنه، فقد كانت الأزمة عنده قبل الوفاة لا بعدها، كانت في ترقب البلاء وتوقع نزوله،مع اشتداد المرض ومشاهدة علامات النهاية، فقد كان ابنه مطعونا، وللطاعون قرحة، كانت يابسة عنده، فتيقن بالنهاية،(٣) لكنه لما حم القضاء، ودفن الابن كان له

(١) السابق.
(٢) التعازي للمدائني / ٥٨.
(٣) التعازي للمبرد / ٧٩.

موقف عجيب؛ فقد رأى قوما يرمون، فلما رأوه أمسكوا، فقال: ارموا، ووقف عليهم، فرمى أحد الراميين فأخرج، فقال له عمر: أخرجت فقصر، ثم قال للآخر: ارم،فرمى فقصر، فقال له عمر: قصرت فبلغ، فقال له مسلمة: يا أمير المؤمنين، أيفرغ قلبك لما يفرغ له، وإنما نفضت يدك من تراب قبر ابنك الساعة، لم تصل إلى منزلك بعد؟! فقال له عمر: إنما الجزع قبل المصيبة، فإذا وقعت فاله عما فاتك"(١).

يحرص الراوي للخبر على نقل تفاصيله، إذ يرينا عمر مراقبا للمباراة، موجها للرماة، وهو عائد توا من دفن ولده، يؤكد ذلك تعجب مسلمة، الذي يذكر في استفهامه عبارة تعيد مشهد الموت حيا فعالا (نفضت يدك من تراب قبر ابنك)، لكنها نفسية العابدين المخبتين، يسلمون لربهم، ويستعينون على مصابهم بالتلهي والتشاغل، علاجا للحظة الأزمة.

وفي الرواية ملمح آخر يجب ألا نتركه، يعبر عن موقف عمر (القائد) لا (الوالد الذي ثكل في ولده)، فإن الحالة الثانية التي كان متلبسا بها، لم تنسه واجبات القيادة، ومسؤوليات (الخلافة)، إذ يستوقفه مشهد المباراة في ميدان الرماية، ويقف ومعه رفاقه وقواده ومساعدوه – إذ لم يكن معهودا أن يسير الخليفة وحده، وبخاصة عند عودته من جنازة ولده – حتى يخرج أحد قادته عن صمته متعجبا من شأن الخليفة، لكنها التربية العملية، توازن بين المهام، وتتعامل مع الأحداث بواقعية، وتعلي شأن الغايات الكبرى للأمة، وإن ظهرت في مظهر بسيط، في ميدان رماية فهي صورة من صور (الإعداد) للقوة قال عنها رسول الله (ﷺ): "ألا إن القوة الرمي"(٢).

(١) التعازي للمدائني / ٩٧.

(٢) صحيح مسلم، ٣ / ١٥٢٢.

من البين أن البلاء المتوقع والبادية علاماته، هو مشغلة للذهن، وهم وحزن في القلب، فكأن المبتلى في هذه اللحظة يعيش لحظة البلاء متكررة؛ فمع أنات المريض وآهاته تتساقط نفس أحبته ألما وحزنا، وكلما طالت فترة المرض مع اليأس من الشفاء تضاعفت المعاناة وازداد الكرب على نحو ما يصف ابن الرومي فلذة كبده قبل موته([1]).

وظل على الأيدي تساقط نفسه ** ويذوي كما يذوي القضيب من الرند

فيالك من نفس تساقط أنفسا ** تساقط در من نظام بلا عقد

وتلك هي اللحظات الممضة التي تقطع الأكباد، وتزيد الضغوط النفسية على والدي المريض وأحبته، ومرجع ذلك إلى تمثل البلاء في مشهد حي متضاعف مرئي و مسموع، فإذا ما جاءت ساعة الموت، واستراح المريض من معاناته المتضاعفة؛ استراح معه أحبته، وإن كان الموت بذاته مفجعا، لكنه ربما يكون رحمة، من باب (اليأس إحدى الراحتين) ثم يكون هو قمة هرم المعاناة، وليس بعد بلوغ القمة إلا العد التنازلي، فما بعد حادث الوفاة أخف مما قبله، وبذلك نستطيع فهم موقف عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) في وفاة ولده.

ويعضده ما روي من أن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) اشتكى ولد له فجزع عليه " فلما مات لم يظهر منه مثل ما ظهر في مرضه، فقيل له، فقال: كان ذلك مني رحمة له، فلما وقع القضاء رضيت وسلمت".([2])

ويشهد لما ذكرته ما روي عن شعيب بن الحبحاب من أن "الحزن ينقص كما ينقص صبغ الثوب، ولو بقي الحزن على أحد لقتله"([3])

---

(١) ديوان ابن الرومي، ٢ / ٦٢٤، تحقيق حسين نصار، دار الكتب، ١٩٧٤.

(٢) التعازي للمدائني / ٥٢.

(٣) السابق / ٧٧.

وتروي الخبر بعض الكتب بعبارة "الحزن ينضو كما ينضو الخضاب"(١).

ودقة التشبيه في الروايتين تؤكد أثر عامل الزمن، إذ نقص الصبغ ونضو الخضاب يقعان شيئا فشيئا، وكذلك المصيبة؛ كلما بعد العهد بها بهتت معالمها، ونسيت تفاصيلها، وغلبت حوادث الأيام عليها، ولذا كان النسيان نعمة ورحمة.

وبذا يبدو جليا أن حدث الفقد يبدأ قبل الموت، بمرض يتضاعف ويشتد، تقل معه فرص الأمل في الشفاء، وتتضاعف المحنة كلما طال أمد تلك الرحلة، وتبلغ ذروتها بالوفاة، وهي أشد المراحل حتى على العابدين المخبتين، فإذا توفي المريض بدأ الحدث في النضو، وهنا يلجأ العابدون الربانيون إلى الصبر، فيأخذ بيدهم وينتشلهم من وهدة الحسرة، إلى واحة الرضا والتسليم، كشأن الخليفة عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) و عبدالله بن عمر الفاروق (رضي الله عنهما) في خبرهما السالف الذكر.

ومن الناس من يضعف صبره وتغلبه نفسه، ويحالفه الحزن فترة من الزمن، بقدر تعلقه بالمتوفى.

"**قال عباد بن مخاشن:** استشهد لي ابنان، فجزعت عليهما فقال رجل: ثم مه؟ قال: كان جرحا فبرأ"(٢)

ويؤكد التناسب العكسي، والصراع الفعلي بين الزمن والتعلق النفسي بالمتوفى، قوله في رواية أخرى: "كنت أتوهمهما كأن الأرض تنشق عنهما فأنظر إليهما"(٣).

---

(١) البصائر والذخائر، لأبي حيان، ٤ / ٢٠٠.

(٢) التعازي للمدائني / ٥٠.

(٣) التعازي للمبرد / ١٦٠.

لا شك أن هذا الجرح كان عميقا متغلغلا في فؤاد الوالد المكلوم حتى برز في مخيلته وأحلام يقظته، وأنه استغرق زمنا أطول حتى يبرأ ويزول أثره، فإن امتداد عمرهما معه وكثرة تجاربه معهما، وتنوع ما تركا من آثار وما شهدا من مواقف.. كل ذلك يضاعف المأساة، ويكثف شعور الأزمة على حد قول ابن الرومي في ولده([1]).

أرى أخويك الباقيين كليهما ** يكونان للأحزان أورى من الزنـــد

إذا لعبـــا في ملعب لك لذعا ** فؤادي بمثل النار من غير ما قصد

وممن عمق جرحهم واشتد مصابهم (غيلان بن سلمة الثقفي) فقد استشهد ابنه (نافع) فكثر بكاؤه عليه فعوتب، فقال: "دعوني أبكي ما أسعدتني عيني؛ فإنها ستنفذ دموعها كما بلي نافع"([2]).

وإن مصابا ينفذ عليه صاحبه ماء الشؤون لمصاب عظيم، وموازاة ذلك وتشبيهه بوفاة الفقيد يلمح إلى عظم الفادحة، على مثل قول ابن الرومي([3])

..... فجودا فقد أودى نظيركما عندي

ومع ذلك فقد تكفل الزمن بمسح أثر الفجيعة، وتخفيف وقعها، وذهبت الأيام بمرارتها، حتى سئل غيلان "أين دموعك؟ قال: لكل شئ بلى"([4]).

---

(١) ديوان ابن الرومي، ٢ / ٦٢٥.

(٢) التعازي للمدائني / ٦١.

(٣) ديوانه / ٢/ ٦٢٤.

(٤) التعازي للمدائني / ٦١.

خامسا:- الفرار من جحيم الجزع إلى عظيم الأجر:

المبتلى بما يقدر من النوازل نوعان؛ جزوع، وصابر، وقد اهتم حكماء الأمة عبر القرون ببيان خطر الجزع نفسيا، والتحذير من مغبته شرعيا، ومزج بعضهم في تعزيته للمصاب بالرزية بين النصح العقلي القائم على الإقناع، والتوجيه الروحي المرتبط بثواب الله تعالى.

ينقل المدائني عن أحد المعزين قوله "عظم الله أجركم، وألهمكم الصبر، فإن الصبر محمود العاقبة، وليس في الجزع عصمة من النائبة"(١).

وعزى آخر فقال: ليس في الجزع عقبى تفيد راحة... ومن أعظم الجزع على مصيبته بفقد المحبوب فقد استدعى أخرى بفوات الآخرة ".(٢)

"وقال علي (ﷺ) للأشعث وعزاه عن ابن له:... يا أشعث، إنك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور"(٣)

وإذا كانت التعازي السابقة ترتكز على المفاهيم العقلية ممزوجة بالمعاني الشرعية، كعدم عصمة الجزع من حلول النوائب، وفوات ثواب الآخرة بسببه، فإن بعض المعزين قد تناول قضية الجزع من جانب عقلي محض، كـ(محمد بن الفرات) الذي قال: "لو أن جزعا على رزية وقى حلول نائبة، أو رجع فائتا، لتقدم فيه العاقل، واعتصم به الخائف، ولكن الصبر طوعا أو كرها"(٤).

---

(١) السابق / ٧٥.

(٢) السابق / ١٠١.

(٣) السابق / ٨٢.

(٤) التعازي للمدائني / ١٠١.

ويوازن آخر بين عاقبة الصبر ومآل الجزع في توجيه تربوي يحمل المسحة الأبوية فيقول: "يا بني، إن احتمال المضاضة في أول الصبر حتى ينقطع الحزن، أيسر نكاية من آخر الجزع، وإن أمرا لا يتعقب مصدره إلا بالندم، ولا يخلص منه إلا إلى الإثم لحقيق ألا يتقبل مورده إلا بالقمع والقرع"(١).

وقريب من ذلك قول الآخر: "التمس ما وعد الله من ثوابه بالتسليم لقضائه، والانتهاء إلى أمره، فإن ما فات غير مستدرك، وعوض الله لك بالصبر عن مصيبتك خير لك من الجزع على رزيتك"(٢).

ويحذر (العتبي) المعزى من الجمع بين فجيعتين، المصيبة وضياع الأجر، فيقول: "إنما يستوجب على الله وعده من صبر لحقه، فلا تجمع إلى ما فجعت به الفجيعة بالأجر، فإنها أعظم المصيبتين عليك، ولكل اجتماع فرقة إلى دار الحلول"(٣).

ويعظ (ابن السماك) بما يقارب هذا فيقول: "المصيبة واحدة، فإن جزع صاحبها فهما ثنتان، وما من مصيبة إلا ومعها أعظم منها؛ إن صبر فالثواب، وإن جزع فسوء الخلف، بكون ما فاته من ثواب الله أعظم من المصيبة"(٤).

ويروي المدائني عن بعضهم: "إن لك في العزاء عن رزيتك عاجل الروح، و آجل الثواب، وفي الجزع بخس الثواب وتخوف العقاب"(٥).

---

(١) السابق ١٠٢.

(٢) السابق / ٨١.

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه، ٣ / ٢٥٦.

(٤) التعازي للمدائني / ٨٣.

(٥) السابق / ٨١.

ثم إن التماس الأجر والرضا من الله – تعالى – هو محور تعزيات العارفين، يروي المدائني عن أبي بكر الهذلي "عن أبي المليح قال: قال رسول الله (ﷺ) قال الله (ﷻ): إذا أخذت صفي عبدي فصبر، لم أرض له ثوابا دون الجنة،... وكان النبي (ﷺ) إذا عزى قال: رحمكم الله وآجركم"(١).

وفي (المستدرك) للحاكم أنه مات ابن لمعاذ بن جبل (رضي الله عنه) فكتب إليه رسول الله (ﷺ) يعزيه: "...فأعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر،...ولا يحبط جزعك أجرك فتندم، واعلم أن الجزع لا يرد شيئا، ولا يدفع حزنا، وما هو نازل فكأن قد"(٢).

وتعزت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) عن وفاة أبيها الصديق (رضي الله عنه) فقالت وهي على قبره: "... ولئن كان أجل الحوادث بعد موت رسول الله (ﷺ) رزؤك، وأعظم المصائب فقدك، إن كتاب الله (ﷻ) ليعد فيك بحسن العزاء عنك، وحسن العوض منك، بالاستغفار لك"(٣).

ومات عبد الله بن مطرف، فخرج مطرف في ثياب حسنة وقد ادهن، فأنكروا عليه، قال: أفأستكين لها، وقد وعدني ربي ثلاثا، إحداهن أحب إلي من الدنيا وما فيها؟ (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)"(٤).

وحين تقدم الآخرة ويعظم قدرها لدى العارفين، تتغير موازين الناس المعهودة؛ فينظر للبلاء على أنه فرصة لتحصيل الأجر، ويقدم بعضهم التهنئة

---

(١) التعازي / ٩٤.

(٢) المستدرك، ٣ / ٣٠٦ ، وقال عنه الحاكم: غريب حسن.

(٣) التذكرة الحمدونية، ٤ / ٢١٣.

(٤) السابق / ٢٥٩.

به على التعزية في المصيبة، نقل أبو على القالي في أماليه: "التهنئة على آجل الثواب أولى من التعزية على عاجل المصيبة"(١).

وفي مقابل (الفناء) المكتوب على دنيا الناس يأتي (ثواب الجنة الخالد) معادلا رابحا يرتكن إليه ذوو البصائر، فيقول أحدهم: "في ثواب الله (ﷻ) عوض مما أصبتم به، وفيما استقر عندكم من فناء الدنيا عزاء عما فجعتم به"(٢).

ولعظم قضية (الأجر) لدى المؤمنين، تصبح السلعة الرائجة، والعملة المتداولة، والشغل الشاغل في تعازيهم، حتى ليهتم الوالد بمصير ولده الفقيد، وبموقفه بين يدي ربه، فيهبه ثواب عمله، "قال محمد بن خالد بن مسلم بن يسار، وقد توفي ابنه فحزن عليه: يا بني، شغلني الحزن لك عن الحزن عليك،اللهم إني قد جعلت ثوابك لي عليه له"(٣).

ويعزي سهل بن هارون رجلا فيقول: "مصيبة في غيرك لك أجرها، خير من مصيبة فيك لغيرك ثوابها"(٤).

وهو معادلة يشرحها عمر بن عبد العزيز لابنه وهو يموت: "لأن أقدمك فأجدك في ميزاني، أحب إلي من أن تقدمني فتجدني في ميزانك"(٥).

---

(١) الأمالي، ٢ / ٩٩،ط٢، دار الكتب، ١٩٢٦.
(٢) التعازي للمدائني / ٦٩.
(٣) السابق / ٤٨.
(٤) البصائر والذخائر لأبي حيان، ١ / ٢٤.
(٥) التعازي/ ٧٩.

وعزى (عبد الله بن عباس) (عبد الله بن جعفر) (ﷺ) في وفاة مملوك له فقال: "لا تعدم الأجر على الرزية، والخلف من الفقيد، ثقل الله به ميزانك، وغفر لنا ولفتاك"(١).

ونرى (انتظار الخلف) هنا مقرونا بـــ(التماس الأجر)، ويغلب ذلك في التعزية المتعلقة بمن هم فرع عن المعزى أو تبع له، كمثل تعزية (إياس بن معاوية) لرجل في وفاة ابنه، بقوله:" لا ينقص الله عددك، ولا يزل نعمة عنك، وعجل الله (ﷻ) لك من الخلف خيرا مما رزئت به"(٢).

وتتضح الصورة أكثر، ويتفرد (انتظار الخلف) بمضمون التعزية، حين يشتد التعلق بالمتوفى، كزوجة (بكر بن عبد الله المزني)، التي جزع زوجها لوفاتها، واصفا إياها لـــ(الحسن): "إنها كانت مواتية، وكانت، وكانت... " فقال الحسن: فلا تيأس؛ فعند الله خير منها، فتزوج أختها، فمر به الحسن، فقال: يا أبا سعيد، هذه خير من أختها"(٣).

إن كلمة التعزية دواء لجرح، والحكيم من يدرك موضع الجرح ودرجته، فيجعل الدواء بمقداره، لا يزيد ولا ينقص، وعبارة الحسن "عند الله خير منها "انفراجة أمل، في ظلمة الحزن واليأس المحيطة بالمبتلى، وهي تذكرة وانتشال، لمن سدت عيه الفاجعة نطاق التفكير، ومنعته استشراف الغد.

ونجد الطرافة في التعزية حين يدق الموقف، بتغير عنصر هام فيه، وهو العقيدة، وهي مرتكز قضية (الأجر والدعاء) بالخلف، فيحور المعزِي المضمون

(١) التعازي للمدائني / ٩٨.
(٢) التعازي للمدائني / ٨٣.
(٣) السابق / ٤٢.

بما يناسب المقام، فيقول للمعزَى اليهـــودي: "أعطاك الله على مصيبتك، أفضل ما أعطى أحدا من أهل ملتك"(١).

سادسا:- التسلي بسوابق التجارب وعظم المال وحسن الخلف:

للمعزين نظرة إلى (الماضي) عبرة واقتداءً، وإلى (الباقي) تأميلا واستبشارا، ثم إلى أنفسهم وما ينتظرها تذكرة وتبصيرا.

فأما نظرتهم إلى (الماضي)، فبتذكر محن السالفين، ومواقف الصابرين.

يروي ابن كثير أن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) دخل على السيدة أسماء بنت الصديق (رضي الله عنهما) وهي بالمسجد، بعد أن قتل الحجاج ابنها عبد الله بن الزبير (رضي الله عنهما) وصلبه، يقول ابن كثير: "وقيل إن ابن عمر دخل معه [أي الحجاج] وابنها مصلوب فقال لها: إن هذا الجسد ليس بشيء، وإنما الأرواح عند الله،فاتقي الله واصبري، فقالت: وما يمنعني أن أصبر؛ وقد أهدي رأس (يحيى بن زكريا) إلى بغي من بغايا بني إسرائيل... وقيل إنها غسلته، وصلت عليه، ثم دفنته، ثم ماتت بعده بأيام"(٢).

ولا يدرك القارئ سر صيغة التعزية هنا إلا بعد معرفة ملابساتها.

فرواية المدائني لهذه التعزية مقتضبة، اقتصرت على الصيغة فقط، ربما لأنه ليس معنيا بسرد حوادث التاريخ كـــ(ابن كثير) في (البداية والنهاية)، ولكن عبارة "إن هذا الجســـد ليس بشيء" يكون لها شأنها حين يدرك أن ذلك ((الجسد)) كان لا يزال مصلوبا، وأن الحجاج حاول تخفيف الصدمة على أسماء

(١) عيون الأخبـــار، ٣ / ٨٦.

(٢) البداية والنهـــاية، ٨ / ٣٨١.

(رضي الله عنها) باصطحاب عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) معه ليعزيها، ولكن ردها كان على مستوى الحدث الملتهب، والقلب المتفطر أسى.

فضرب المثل برأس (يحيى) (عليه السلام)، وبإهدائه إلى بغي، كلاهما رمزان مقصودان، وكأنها تلمح للحجاج أنه قدم رأس (عبد الله بن الزبير) قربانا لإرضاء بني أمية، و وفاتها بعده بأيام دليل الكمد الذي احتقن داخلها على ولدها المقتول ظلما، إنها تعزي نفسها بعبارة تحمل في مضمونها موقفا قويا، لم يزده البغي إلا صرامة.

ويروي المدائني عن يزيد بن عياض بن جعدبة قال: "كان عبد الله بن الزبير إذا أصابته مصيبة قال: إن ابتليت فقد قتل أبي وإمامي عثمان فصبرت"(١).

ومن قبله تعزى الفاروق عمر (رضي الله عنه) عند حلول المصائب، بتذكر مصابه في شقيقه (زيد بن الخطاب)، فكان يقول معزيا نفسه: "فقدت زيدا فصبرت"(٢)، أي أن المصائب بعده هينة، وقد استطعت الصبر على فقده، وكان لفرط حبه لزيد يقول: "ما هبت الصبا إلا وجدت نسيم زيد".(٣)

ويغتبط العقلاء بالعافية، حين يخف البلاء، ويتجاوز الأنفس إلى الأموال، فيحمدون ربهم على المعافاة، إذ البلاء مترصد للإنسان، لا يسلم منه أحد.

يروي المدائني أن رجلا من بني نهشل أصبح "وقد موتت له عدة أباعر وشاء؛ فقال: والله لئن كانت المنية باتت تحوطني و تطيف بي، ثم أصبحت وقد زالت عني إلى شاتي وبعيري، ثم جزعت إني إذا لجزوع، ثم قال:

---

(١) التعازي / ٤٣.

(٢) السابق / ٤٦.

(٣) السابق.

المرء يسعى سادرا حتى يقال له تعاله"(١)

وأما نظرة المعزين إلى (الباقي) تأميلا واستبشارا، فعلى وجهين.

أحدهما: يرتبط بالآخرة وهو حسن مآل الفقيد، ورجاء الكرامة له عند الله – تعالى.

والثاني: يتعلق بالدنيا وهو ما خلفه من ولد صالح، وذكر حسن.

يذكر المدائني أن أبا أمامة الحمصي استشهد له ابن فكتب إليه عمر (ﷺ) قائلا: "الحمد لله على آلائه وقضائه، وحسن بلائه، قد بلغني الذي ساق الله (ﷻ) إلى عبد الله بن أبي أمامة من الشهادة، فقد عاش – بحمد الله – مأمونا، وأفضى إلى الآخرة شهيدا، فقد وصل إليك من الله كثير إن شاء الله"(٢).

لقد كان (للشهادة) – في قرون الإسلام الأولى – مكانة عالية، حيث كانت مضامين (الجهاد) و (العزة) و(الموت في سبيل الله) من المكونات الأساسية لعقل الأمة الجمعي، ولذا تواردت الأخبار التي يغبط فيها المعزون أهل الفقيد، بما نال من كرامة الشهادة، وشرف الموت في ساحات الجهاد.

"صلى أبو بكر (ﷺ) صلاة الصبح يوما، فلما انفتل قام متمم بن نويرة في آخر الناس – وكان رجلا أعور دميما، فاتكأ على قوسه، ثم قال:

نعم القتيل إذا الريـــاح تناوحـــت * خلف البيوت قتلت يا ابن الأزور(٣)

..... * .....

(١) السابق / ٥٣.

(٢) التعازي للمدائني / ٣٠.

(٣) هو ضرار بن الأزور، والأزور: مالك بن أوس بن جذيمة الأسدي، يراجع: الطبقـــات الكبرى لابن سعد، ٢١٢/٦ تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتـــب العلميـــة، ١٩٩٠.

لا يمسك العــوراء تحــت ثيابــه * حلــو شــمائله عفيــف المئــزر

ولنعم حشو الدرع كنت وحاســرا * ولنـــــعم مأوى الطارق المتنــور

فقام إليه عمر فقال: لوددت أنك رثيت أخي بما رثيت به أخاك! فقال: يا أبا حفص، لو أعلم أن أخي صار حيث صار أخوك ما رثيته، يقول: إن أخاك قتل شهيدا، فقال عمر: ما عزاني أحد بمثل تعزيتك"(١).

وقد كان الأب يفخر باستشهاد ولده في سبيل الله، فقد أصيب (عمرو بن كعب النهدي) بتستر مع مجزأة بن ثور، فكتموا أباه الخبر، ثم علم فلم يجزع، وقال: الحمد لله الذي جعل من صلبي من أصيب شهيدا"(٢).

وليس الأمر مقتصرا على الآباء، بل تشارك الأمهات في ذلك الشرف، مع ما يعرف عنهن من شدة التعلق بالولد، وغلبة العاطفة عليهن، وقصة (الخنساء) (رضي الله عنها) التي مات أبناؤها في الغزو، فافتخرت بذلك – أشهر من أن تنسى في تاريخنا، فقد قالت حين جاءها خبرهم: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته"(٣).

ويروي المبرد أن إخوة ثلاثة من بني قطيعة شهدوا يوم (تستر)، فاستشهدوا، فخرجت أمهم يوما إلى السوق لبعض شأنها، فتلقاها رجل قد حضر أمر تستر، فعرفته فسألته عن خبر بنيها، فقال: استشهدوا، فقالت أمقبلين أم مدبرين؟ قال: بل مقبلين، قالت: الحمد لله، نالوا الفوز، و حاطوا الذمار، بنفسي هم وأبي وأمي"(٤).

---

(١) التعازي / ٥٤.

(٢) السابق / ٢٤٢.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، ٤ / ١٨٢٧، ط١، دار الجيل، ١٩٩٢.

(٤) التعازي / ٧٧.

إن سؤال الأم الثكلى يدل على المضمون الاجتماعي القيمي السائد، القائم على (الإقدام) و(الشجاعة) و (حماية الذمار) و(شرف الشهادة)، وهي مقومات عزة الأمة ومهابتها.

أما الوجه الثاني في نظرة المعزين إلى (الباقي) تأميلا واستبشارا، فيتمثل فيما خلفه الفقيد من مآثر صالحات، وخلف حسن.

نجد نموذجا لذلك في تعزية الأعرابي التي نقلها (أبو حيان التوحيدي) فقال:

"والله ما مات من خلفك، ولا خاب من أملك، ولا توحد من أهلك. إن من كنت بغيته لموفور، ومن كنت ثماله لمحبور، ومن كنت وليه لمنصور"(١).

ونحن هنا مع نموذج متميز من الإبداع البياني، دقة في الألفاظ، مع تعدد إشعاعاتها، وسجعا محببا غير متكلف، وإيجازا يجمع أطراف المضمون، ثم ينشرها على جزأين، بينهما (شبه كمال اتصال)، ثم نجد ذلك التوازن الموسيقي في تكوين العبارات، حيث يبنى الجزء الأول على الفعل الماضي المنفي، الذي جاء اسم الموصول (من) فاعلا له، ثم جاءت الصلة لتتم العبارة،معنى وإيقاعا، (خلّفك – أملك – أهّلك)، وكلها أفعال مضعفة العين، وانتهاؤها جميعا بضمير الخطاب (الكاف) يوحي بمدى الحب والثقة والاعتزاز، تلك المشاعر التي تنثال مع تتابع العبارات الثلاث، مؤكدة بالقسم الذي يسبقها.

ويأتي الجزء الثاني معللا لصحة الدعوى في الجزء الأول، فينفصل عنه، مبدوءا بـــــ(إن) المؤكدة، ثم تبنى عباراته على نسق تركيبي واحد، يوفر جوا موسيقيا متناغما، إذ يتكون من اسم الموصول (من) والماضي (كنت)، ثم تتلون العبارة بتنوع خبر (كنت) مع الحرص على السجع المعضد لتماسك السياق، إذ

(١) البصائر والذخائر، ٢ / ١٨٣.

يضيف إلى التماسك المضموني والتشابه التركيبي بعدا موسيقيا وإطارا موحدا (محبور – موفور – منصور).

وتنوع خبر (كنت) يعطينا الأبعاد الثلاث المميزة لملامح شخصية المعزى، (البغية) و (الثمال) و(الولي)، وهي معالم تشكل نموذجا اجتماعيا فريدا، نسيجه الكرم والنجدة والمنعة.

و(الثمال) بالثاء المكسورة بمعنى الغيـــاث والملجأ، وقد جاءت الكلمة في مدح (أبي طالب) للنبي (ﷺ) حيث قال(١)

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

أما التعزية بحسن الخلف فمنها رسالة (مروان بن محمد)- آخر خلفاء بني أمية – إلى ولد (المسور) يعزيهم عن أبيهم، وفيها يقول: "قد بلغ أمير المؤمنين الذي كان من نازل قضاء الله – تبارك وتعالى- في المسور بن عمرو، وما اختار الله من المصير إليه، فعند الله يحتسب أمير المؤمنين مصابه،ونعم المتوفى توفاه الله من بينكم، وفي جود الله الخلف الكافي، وقد أعاضكم الله (ﷻ) من مصيبتكم رأيا من أمير المؤمنين جميلا، فيه حسن الخلف عليكم من مصيبتكم، فلتحسن ظنونكم بربكم،وخليفتكم، فإن الله (ﷻ) لم يقبض وليا له إلا أحسن خلافته في ولده وأهل لحمته"(٢).

سابعا:- تجارب الفقد ذكرى للحى:

يغتنم بعض المعزين مناسبة الفقد في تذكير المعزى بالآخرة والجزاء، وبخاصة إذا كان ممن هم مظنة الانشغال بالدنيا، كالأمراء والأغنياء.

---

(١) لسان العرب (ث م ل).

(٢) التعازي للمدائني / ٤١.

من ذلك تعزية (محمد بن الوليد بن عتبة) لـــ (الوليد بن عبد الملك) والتي قال فيها: "يا أمير المؤمنين، ليشغلك ما أقبل من الموت إليك، عمن هو في شغل مما دخل عليك، وأعدد لنزوله عدة، تكون لك حجابا من الجزع، وسترا من النار، فقال: يا محمد، أرجو ألا تكون رأيت غفلة تنبه عليها، ولا جزعا يستتر منه، وما توفيقي إلا بالله، فقال محمد:يا أمير المؤمنين، إنه لو استغنى أحد عن موعظة بفضل لكنته، ولكن الله يقول: وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين"(١).

ويروي المدائني موقفا مشابها بين محمد بن الوليد بن عتبة وعمر بن عبد العزيز، حيث عزاه محمد بن الوليد في وفاة ابنه عبد الملك،فقال: "يا أمير المؤمنين، أعد لما ترى عدة، تكون لك جنة من الحزن وسترا من النار، فقال عمر: هل رأيت حزنا نحتجن له، أوغفلة أنبه عليها؟ فقال: لو أن رجلا ترك تعزية رجل لعلمه وانتباهه لكنته، لكن الله قضى (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)"(٢).

وشدة التقارب في الصياغة بين رواية المدائني ورواية ابن قتيبة مع نسبة كل منهما إلى (محمد بن الوليد بن عتبة) يشعرنا بأنها رواية واحدة، وربما كان الوهم في شخصية المعزى، أو أن الموقف تكرر وإن اتحد المضمون.

ويشترك المعزَى والمعزي معا في التذكرة، فتكون حادثة الفقد فرصة لمراجعة النفس، من ذلك ما روي عن تعزية عمرو بن ميمون لبعض من ابتلي بالفقد حيث قال: "عز نفسك بما كنت معزيا به غيرك، وأنا وإياك ومن ترى – وإن تراخت بنا مدة إلى أجل نحن بالغوه، فكأن الموت قد حل بنا وبك، لا مدفع

(١) عيون الأخبار ٣ / ٦٧.

(٢) التعازي للمدائني ى / ٦٩.

له ولا محيص عنه، فأسال الله (ﷻ) أن يجعل بقاءنا وبقاءك مسارعة لنا في الخيرات، واقتداء بمن أمرنا أن نقتدي بهداه من المصطفين الأخيار"([1]) .

ثامنا: - تعزية وتهنئة وجهان لموقف واحد:

تمتزج التهنئة بالتعزية – ظاهريا – في بعض المواقف حين يكون المعزى في موقع المسؤولية، بحيث يتحمل العبء بعد المتوفى، وربما تقرن التعزية ببعض التزلف لذوي السلطة كما حدث من عطاء بن أبي صيفي الثقفي فيما ذكره ابن قتيبة حين قال: "إن أول من هنأ وعزى في مقام واحد عطاء بن أبي صيفي الثقفي، عزى يزيد بن معاوية بأبيه وهنأه بالخلافة، ففتح للناس باب الكلام فقال: أصبحت رزئت خليفة وأعطيت خلافة الله، قضى معاوية نحبه فغفر الله ذنبه، ووليت الرياسة، وكنت أحق بالسياسة، فاحتسب عند الله أعظم الرزية، واشكر الله على أعظم العطية، وعظم الله في أمير المؤمنين أجرك، وأحسن على الخلافة عونك"([2]).

وهل يعد تحمل المسؤولية وعبء الخلافة عطية يهنأ عليها، أم رزءا يشفق على صاحبه؟

من الواضح أنه رزء وثقل، نشعر بذلك من الدعاء ليزيد في النص السابق (وأحسن على الخلافة عونك)، فهي في الحقيقة تعزية وإشفاق ودعاء، لكن الشكل الظاهر لها يخدع به البسطاء فيسمونه تهنئة.

وربما كان لـــ (عطاء) صاحب النص السابق دور ما في تقوية أمر يزيد، يدلنا عليه قول الراوي (ففتح للناس باب الكلام).

---

(١) السابق.

(٢) عيون الأخبار ٣ / ٧٨.

ونجد ذلك في كلام الأمين وهو ينعى (الرشيد) حين قال: "أيها الناس، وخصوصا يا بني العباس، إن المنون مراصد ذوي الأنفاس، حتم من الله- تعالى- لا يدفع حلوله،ولا ينكر نزوله، فارتجعوا قلوبكم من الحزن على الماضي إلى السرور بالباقي؛ تجزون ثواب الصابرين، وتعطون أجور الشاكرين"(١).

ونلمح هنا اجتزاء للحدث، وقفزا على حالة الفقد، وتجاوزا لها إلى ما بعدها، مما هو أهم لدى المتكلم، "فارتجعوا قلوبكم من الحزن على الماضي إلى السرور بالباقي".

ويكرر (المأمون) كلام (الأمين) لكن في (مرو) حين بلغه نبأ وفاة (الرشيد)، وجاءه الأمر بأن (يأخذ البيعة للأمين)، فخطب قائلا: "إن ثمرة الصبر الأجر...وقد أتى على خليفتكم ما أتى على نبيكم (ﷺ) فإنا لله وإنا إليه راجعون،... وقد سد أمير المؤمنين ثلمه، وقام مقامه، وفي أعناقكم من العهد ما قد عرفتم، فأحسنوا العزاء عن إمامكم الماضي، واغتبطوا بالنعماء لخليفتكم الباقي"(٢).

إنه (إعلان وراثة)، مغلف بـــ (تهنئة وتعزية)، وليس وراء ذلك من المضمون شيء.

ونرى مثل ذلك (الإعلان) واضحا في خطبة الوليد بن عبد الملك ينعى أباه: "يا لها من مصيبة! ما أفجعها وأعظمها! وأشدها وأوجعها وأعمها؛ موت

(١) التذكرة الحمدونية ٤/ ٢١٩.
(٢) السابق.

أمير المؤمنين، ويا لها من نعمة، ما أعظم المنة من الله عليَ فيها، وأوجب الشكر له بها؛ خلافته التي تسربلتها"(١).

وتعزي أعرابية (المنصور) بعد وفاة (السفاح)، فتعتبر (الخلافة) عوضا مناسبا للمصيبة، إذ تقول: "أعظم الله أجرك في أخيك، لا مصيبة أعظم من مصيبتك، ولا عوض لها أعظم من خلافتك"(٢).

لكن تعزية ذوي المسؤوليات تتخطى في بعض الأحيان حدث الفقد، وتتجاوز مجرد انتقال العبء، إلى خطوة أبعد هي النصح المباشر لصاحب المسؤولية الجديدة، وهو نصح يكاد صاحبه يتجرد من أثر العواطف، ويشارف (الواقعية الحادة)، نجد ذلك فيما نقله (القالي) في أماليه من تعزية بعضهم لرجل على أخيه، حين قال: "محبوب فائت، وغنم عارض، إن ضيعته فات أيضا، وبقيت حسيرا، أما أخوك فلا أخوك، فلا يذهب بك جزعك، فتحط سؤددك، وتقل ثقة عشيرتك باطلاعك بالأمور، وفي كثرة الأذى عزاء عن المصائب"(٣).

ومن طرائف التعزية المقرونة بالتهنئة ما نقل عن (أبي العيناء) في تعزيته لرجل توفيت زوجه، حيث قال: "تقديم الحرمة من جزيل النعمة، فأنت إلى التهنئة بالنعمة في هذه المصيبة أولى منك بالتعزية! فالحمد لله الذي جعل لك أجرها، ولم يجعلك لها ثوابا، وإن عظم الفقد لطول الأنس والصحبة فثواب الله أعظم وأجزل"(٤).

---

(١) السابق / ١٥٧.

(٢) عيون الأخبار ٣ / ٧٨.

(٣) الأمالي ٢ / ٩٩.

(٤) البصائر والذخائر ٦ / ١٤.

ولئن قبل هذا الكلام من (أبي العيناء) على سبيل الطرفة فإنه لا يمكن قبوله على إطلاقه، فإن من الزوجات من كان فقدها جللا، فما كان رسولنا (ﷺ) يذكر أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) بعد وفاتها إلا مثنيا عليها، مظهرا عظم بليته في فقدها، ذلك حين يقول: "...ما أبدلني الله خيرا منها، صدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد إذ لم يرزقني من غيرها "(١).

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٣ / ١٣.

المحور الثالث
النسق التشكيلي

يغلب على (التعزية) أن تكون موقفا ثنائيا قصيرا بين المعزي والمصاب بالفقد أو المرض أو غيرهما من البلاءات، ولكن هذا الموقف الكلامي قد يطول فيصير(خطبة)، وقد تكون التعزية كتابية فتأخذ شكل (الرسالة).

وقد تميز الأداء التعبيري في المواقف الثنائية القصيرة بملامح منها:

١. تصوير ملامح اشتداد أزمة الفقد (مدى قرب الفقيد من المعزى وهو حي، ملازمته له أينما حل)، مع نقل المشهد التصويري لجائزة المبتلى الصابر، وبخاصة في حالة فقد الولد، وتضمين ذلك المشهد عدة بشارات للمبتلى، كما في قول النبي (ﷺ) لرجل توفي ولده: "أما يسرك ألا تأتي بابا من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك؟"، وقد سبق تفصيل الكلام في المشهد التصويري في هذا الحديث في المحور الأول من هذه الدراسة.

٢. استخدام تقنية (الإدهاش) بسوق اللفظ في عكس مدلوله، مع توظيف الطباق، استثارة للمتلقي، وتعديلا لبعض المفاهيم، كما في قول بعضهم "آجرك الله في الباقين، ومتعك بالفانين"، وقد تمت معالجته في المحور الأول.

٣. توظيف (المشهد الحواري)، في تصوير مقدمات المحنة، ومراحل الأزمة، وبخاصة بين (الوالد) و (الولد)، كالذي دار بين (عمر بن عبد العزيز) وابنه (عبد الملك) الذي أصيب بالطاعون، وقد عولج الحوار بينهما في المحور الأول أيضا.

٤. استخدام (الجملة الدعائية) مسلاة للمصابين، وتخفيفا لآلامهم، وتذكيرا بالأجر المذخور عند رب رحيم، وقد شاع ذلك في معظم تعزيات الصحابة الكرام ومن اقتدى بهم، وقد تم استعراض نماذج منها في المحور الثاني.

أما الخطب فمنها القصار التي سبقت الإشارة إلى نماذج منها، كخطب خلفاء بني أمية وبني العباس، أو من ينوب عنهم، في حال وفاة سابق وتولي لاحق، ولكن هناك نماذج من (خطب التعزية) طالت حتى استوعبت كثيرا من الحكم والوصايا المتصلة بقصة الإنسان ورحلته في الحياة، وصراعه مع الزمن، وعلاقته بالقدر.

من ذلك ما قاله الخليفة عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) حين توفي ابنه عبد الملك، ومنه "إن الله – جل ذكره – لم يجعل لمسيء ولا لمحسن خلودا في الدنيا، ولم يرض بما أعجب أهلها ثوابا لأهل طاعته، ولا ببلائها عقوبة لأهل معصيته، فكل ما فيها من محبوب متروك، وكل ما فيها من مكروه مضمحل.."(١).

ويبدو هنا المضمون عاما، يتناول قضية الدنيا وقيمتها عند الله – تعالى، ولا يخص حالة الفقد الآنية أو يتمحور حولها.

وقد ذكرت بعض مصادر الأدب خطبة تعزية، موجهة إلى بعض الملوك، في وفاة أحد أقاربه،و ربما تختلف بعض الألفاظ والعبارات بين مصدرو آخر، لكن المضمون في النهاية يكاد يكون متطابقا، وأكاد أجزم أن الغرض من إيراد مثل هذه الخطبة ليس التأريخ لوفاة أحد الملوك، ولا لحفل العزاء الذي أقيم له، بقدر ما هو الحفاظ على ما تضمنته الخطبة من حكم و وصايا واستدلال منطقي، وتنويع في طرق الصياغة وتشكيل الأسلوب.

---

(١) التعازي للمدائني / ٣١.

ذكر (المدائني) في تعازيه أن (علقمة بن المنذر) عزى أخاه عمرا، فقال: "يا عمرو، يا ثمرة الرأي ومعدن الملك، إنما الخلق للخالق، والشكر للمنعم، والتسليم للقادر، ولابد مما هو كائن، وإنه لا أضعف من مخلوق، ولا أقوى من خالق، ولا أقدر ممن طلبته في يده، ولا أعجز ممن هو في يد طالبه، والتفكر نور، والجهالة ضلالة، والغفلة ظلمة، وقد ورد الأول، والآخر سائق متعب، وفي الأشياء عبر، والسعيد من وعظ بغيره، وقد جاء ما لا يرد، ولا سبيل إلى رجوع ما قد فات، وذهب عنك ما لا يرجع إليك، وأقام معك ما سيذهب عنك، فما الجزع مما لابد منه؟ وما الطمع فيما لا يرجى، وما الحيلة لبقاء ما سيفنى، و إنما الشيء من مثله، وقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله؟ "([1]).

وردت هذه الخطبة بعدة روايات، في كل من (البيان و التبيين)([2])، و(الأمالي) للقـــالي([3])، و (التعازي والمراثي للمبرد)([4]).

ونلمح في هذه الخطبة نهجا خاصا في الصياغة، يتناسب مع الخطبة المطولة، إذ بدأ المعزي بعبارة تهيئة نفسية، تمهد للقبول (يا ثمرة الرأي ومعدن الملك)، لكنها تخصص الكلام بجهة محددة، وتوجهه لطرف معين.

كما نلمح الإطناب، واستخدام صيغ التفضيل، والمقابلة، والتنويع بين الخبر والإنشاء، واستخدام الاستفهام لأغراض بلاغية (لا أضعف من مخلوق...قد جاء ما لا يرد...وذهب عنك ما لا يرجع إليك،...فما الجزع مما لابد منه؟).

---

(١) السابق / ١٠٣.

(٢) ٣ / ٢٩٣.

(٣) ٢ / ٩٩.

(٤) /٧٦.

كما نرى لغة النصح بارزة في تكرار فعل الأمر في قوله: "انظر إلى طبقات حالاتك، من لدن كنت في صلب أبيك، إلى أن بلغت منزلة الشرف و حد العقل، وغاية الكرامة؛ هل قدرت أن تنتقل عن طبقة قبل انقباضها؟ وتتعجل نعمة قبل أوان مجيئها؟ وانظر – يا عمرو – إلى آبائك... هل وجدوا سبيلا – أو وجد لهم – إلى بقاء ما أحبوا؟"(١).

والمحور الرئيس في الخطبة – الإنسان والزمن والقدر – يسيطر عليها، ويتبدى بعدة أشكال، منها الصيغة الخبرية المراد بها الوعظ، "إن أكمل الأداة عند المصائب الصبر واليقين...إن أمس موعظة، واليوم غنيمة، وغدا لا تدري؛ أمن أهله أنت أم من غير أهله؟"(٢)، ومنها الاستفهام الإنكاري، والأمر الإرشادي، والنهي التحذيري" وما عناك بطلب من هو في طلبك؟...أم ما جزعك عن الظاعن عنك اليوم، وأنت مرتحل إليه غدا؟ فأفـــق والمرجع قريب، ولا تعم فيــضر بك العمى..."(٣).

أما التعزية الكتابية التي اتخذت من (الرسالة) إطارا لها، فقد كانت– في غالبها – موجزة، تتركز فيها العظة، موظفة حقائق (الموت) و (الصراع بين الإنسان والزمن) و (ضرورة الصبر)، مع استخدام الطباق والسجع أحيانا.

من ذلك ما كتبه (محمد بن عيسى) الكاتب إلى صديقه حيث قال: "من سره امتداد عمره ساءته فجائع دهره، بفقد حميم أو طارق هموم، عادة للزمان

(١) التعازي للمدائني / ١٠٥.
(٢) التعازي للمدائني / ١٠٥.
(٣) السابق.

مألوفة، وسنة للحدثان معروفة، وأحق من سلم للأقضية من وهب الله – تعالى – له جميل الاصطبار"(١).

ومنه رسالة لم يذكر راويها طرفيها، جاء فيها: "...ولكنه أمر الله الذي لا مدفع له، وحكمه الذي لا حيف فيه، وقدره الذي سوى فيه بين عباده، فليس للساخط فيه عتبى،... وليس إلا الانقياد فيه لنازل القضاء...جعلك الله ممن يتلقى أمره بالقبول، وأقداره بالتسليم"(٢).

لكن رسائل التعزية للأمراء والخلفاء تأخذ منحى آخر، إذ يركــز ما أوجز منها على قضية (النعمة التي جاءت مع البلية، أو المنحة التي قرنت بالمحنة)، كتعزية (إبراهيم بن يحيى) لأحد الخلفاء، بقوله: "إن أحق من عرف حق الله عليه فيما أخذ منه، من عظم حق الله عليه فيما أبقي له..."(٣).

ومن الرسائل الموجهة للأمراء في التعزية، ما اتسم بالتزلف والتملق، وخلع صفات على المعزى تضعه فوق الناس، حتى ليعبر عن ذلك باسم التفضيل، كقول أحدهم: "الأمير أذكر لله من أن يذكر به، وأعلم بما قضاه على خلقه من أن يدل عليه، وأسلك لسبيل الراشدين في التسليم لأمره، والصبر على قدره، والتنجز لوعده، من أن ينبه على ذلك من حظه، أو أن يحتاج معزيه إلى أكثر من الدعاء في قضاء حقه"(٤).

---

(١) التذكرة الحمدونية ٤ / ٢٤٤.

(٢) السابق / ٢٥٥.

(٣) التعازي للمدائني / ٩٣.

(٤) عيون الأخبار ٣ / ٦٨.

ويقول أحدهم في رسالته: "نحن نحمد الله – أيها الأمير – إذ أخذ على ما أبقى منك، وإذ سلب على ما وهب بك، فأنت العوض من كل فائت، والجابر لكل مصيبة، والمؤنس من وحشة كل فقد!!..."(١).

وما دام الأمر كذلك، فلا حاجة إذن إلى التعزية، ولا حاجة – أيضا – إلى تسويد صفحات كتبنا الأدبية بمثل هذه النماذج الشائهة، التي تجعل المعزى غاية المؤملين، وما دام (الأمير) بخير فعلى الدنيا السلام،

ولست أدري، ماذا بقي من معاني التوكل والاستعانة بالله (ﷻ) بعد هذه الجمل الثلاث الأخيرة في الرسالة السابقة؟!

فإذا انعتقنا من هذا المجال، فإننا نتنسم هواء الحرية وعبق الأدب معا، في رسائل فئة أخرى هم (الكتاب)، ففي رسائلهم نلمح المضمون الفلسفي، والصياغة الفنية الرائقة.

كتب (إبراهيم بن هلال الصابي(٢)) إلى (أبي الفتح بن العميد) يعزيه بأبيه فجاء في رسالته: "...فمن غلب أخس ما فيه أشرفه قنط من الموت قنوط الغبي، وكرهه كراهة الغر، و ظن أن الله (ﷻ) قد قطع به عصمته، وأزال معه نعمته، ومن غلب أشرف ما فيه أخسه، أيقن أن الله لا يعبث في خلقه، ولا يفكه في نطقه، ولا يخلف ما وعد، ولا ينكل عما ضمن، وأنه (ﷻ) قد جبر مصاب الميت جبرين ظاهرين، يشهد بأحدهما العيان عاجلا، وبالآخر العقل آجلا، فالعاجل النسل، والآجل النشر، فإن أخطأه الأول – على عادة الدنيا في تلون

(١) عيون الأخبار ٣ / ٦٨.

(٢) توفي سنة ٣٨٤ هـ، وكان كاتبا لعز الدولة بختيار، في الدولة البويهية، ولم يسلم، ينظر (العبر في خبر من غبر) للذهبي، ١٦٤/٢.

أحداثها، وتفاضل أرزاقها – فهو حاصل على الثاني لا شك فيه، ولا شبهة عند كل ذي لب و ديانة"([1]).

فمضمون الرسالة يناقش قضية الفناء، وعلاقة الكائن البشري بالوجود، ورحلته فيه، في أسلوب يتسم بالإطناب، ويوظف الترادف وتزاوج الجمل، مع المقابلة والطباق، مع غطاء موسيقي يوفره السجع، وتكاد تكون هذه السمات، علامة مميزة لأهل الاختصاص في فن الكتابة حين يتراسلون.

(١) التذكرة الحمدونية ٤ / ٢٢٤ وما بعدها.

الخاتمة

تتلخص مقومات [فن التعزية] فيما يلي:

أولا: في الجانب المضموني:

تعامل (العقل العربي) مع (البلايا) بأنواعها من خلال مضامين عامة تمثلت في:-

١. الصبر أجدر بالعقلاء وذوي الفطن، والسلو يلجأ إليه من لا يقوى على مواجهة المصائب، يعينه عليها مر الزمان وتكرر الحدثان.
٢. التسلي بسوابق التجارب، و عظم ما تركه الفقيد، من سيرة طيبة، وحسن الخلف من بعده.
٣. إذا كان الرجال أقوى على الصبر لما جبلوا عليه من تغليب العقـــل والحكمة، فإن من النساء نماذج نادرة، كتلك التي مات ابنها، فصبرت وعللت موقفها بأن "الصبر حسن العلانية، محمود العاقبة، وأما الجزع فصاحبه غير معوض عوضا، ولو كانا رجلين في صورة لكان الصبر أولاهما بالغلبة"(١).

لكن الإسلام طور النطاق المضموني في التعامل مع البلايا بتوظيف الأفكار التالية:-

١. التعامل مع حادثة (الفقد: الموت) لا على أنها (انقطاع/انتهاء)، بل باعتبارها (انتقالا / تجددا) يتيح التلاقي بعده و لا يلغيه.
٢. تحوير مفهومي (البقاء والفناء) اعتمادا على دلالتهما القرآنية القائمة على أن الإنسان كائن ممتد الحياة، وليس الموت إلا فاصلا فيها.

---

(١) التذكرة الحمدونية ٤ / ٢٤٥.

٣. اعتبار الموت معادلا للاسترواح والخلوص من مكابدة الحياة وشرور الناس، فهو بذلك (مخلِّص) أي (حل للمشكلة) وليس تعقيدا لها.
٤. قد ترقى النظرة السابقة بـــ (الموت) درجة أخرى في التصور الإيجابي، فتجعله (جائزة و مكافأة) بلقاء رب رحيم يعفو عن السيئة، ويجزي الحسنة بأضعافها.
٥. ارتقاب الأجر الجزيل ممثلا في (جنة الخلد) يخفف وقع البلية، إذ (الجنة) هنا (تعويض) إلهي لمحتسب فقد حبيبا، أو لفقيد انتزعه الموت من بين أحبابه، والأجر هو (السلعة الرائجة) بين المؤمنين في تعازيهم، حتى إن الوالد ليقدمه لولده، من مثل دعاء محمد بن خالد بن مسلم بن يسار لابنه: "اللهم إني قد جعلت ثوابك لي عليه له"(١)، إذ المفقود في ميزان من احتسبه.
٦. هبة الأجر الجزيل من الله (ﷻ) بعد التوفيق للصبر الجميل على بلاء محتوم – نعمة مزدوجة، تثبت قدم العارفين، وتخـــفف أثر المحنة عن المبتلين.
٧. الرؤية الشمولية للحياة، المستوعبة لحلاوتها ومرارتها، الموازنة بين (المفقود) و (الموجود)، بنظرة محايدة، يسقطها المبتلى على نفسه حينا، ثم تتسع لتقارنه بمن هم أشد بلاء.
٨. فكرة (الغياب) المتبوع بـــ (التلاقي) في حالة فقد (الولد) تحول حدث الموت إلى مجرد (حالة) من حالات الغياب التي طالما وقعت في حيـــاة الابن، فهو ليس (فقدا) ولا (فواتا)، ومن هنا يندفع شعور (الحسرة) الذي يسببه (الفوات).

---

(١) التعازي للمدائني / ٤٨.

٩. الموازنة بين مضموني (الفتنة) في حياة (الولد) و (الصلاة والرحمة) في وفاته، توظيفا للنص القرآني ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾(١)، مع الوعد الإلهي بالصلاة والرحمة لمن صبر واسترجع ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾(٢).

١٠. تتفجر الطاقة العاطفية المشتعلة لدى (الوالد) الذي ثكل في (ولده) بشكل لا يصادم التسليم للقضاء، ويرقى عن أن يكون جزعا مسخطا، ليصبح دعـــاء حارا، يمتزج فيه (الرضا) بـــ(رحمة الأبوة)، يدعم أحدهما الآخر، في مشهد إنساني رائـــــع، تتصل فيه الدنيا بالآخرة، وتتندى فيه رحبات الأرض برحمات السماء، في مثل دعاء (عمر بن ذر الهمذاني) لولده الفقيد (ذر): "اللهم إنك وعدتني الثواب بالصبر على ذر، اللهم فعلى ذر صلواتك ورحمتك، اللهم إني قد وهبت ما جعلت لي من أجر على ذر لذر، صلة مني له، فلا تعرفه قبيحا، وتجاوز عنه فإنك أرحم الراحمين، اللهم وإني قد وهبت لذر إساءته إلي، فهب له إساءته إليك، فإنك أجود مني وأكرم"(٣).

١١. أن "لله ما أخذ وله ما أعطى" فلا جزع على شيء استرده مالكه، وأن "كل شيء عنده بأجل مسمى"؛ حقيقتان تقتضيان التسليم المطلق مع (الأمان النفسي)، فلا مجال للمصادفة أو العشوائية، كما أن الجزع يضيع

---

(١) التغابن / ١٥.

(٢) البقرة / ١٥٧.

(٣) التذكرة الحمدونية ٤ / ٢٤٥.

العوض ولا يرد الفائت، وهنا تتعانق (الحقيقة العقلية) مع (مرتكزات العقيدة).

١٢. (الاحتساب) مع (الصبر) ضرورة عند المؤمنين، فليس الباعث على الصبر إثبات الجلد، أو التظاهر بالقوة النفسية، أو الأنفة من أن يراه الناس منكسرا، إنما هو الخضوع لحكم الله – تعالى – ابتغاء الأجر منه وحده، وهما معا [الاحتساب و الصبر] يحميان الكيان البشري من التمزق والانهيار، ويحققان لدى المؤمن مكسبا آخر هو البعد التعبدي، فتتحول المحنة إلى مكاسب متعددة.

١٣. ضمان (الحضن النفسي/العوض والملجأ) في متـــــاهة الحزن والبلاء، ورد ذلك في تعزية الملائكة الكرام للبيت النبوي المشرف في وفاته (ﷺ)" في الله– تعالى– عزاء من كل مصيبة، وخلف من كل فائت، وإنما المحروم من حرم الثواب"(١)، ففي هذه التعزية تعديل لمفاهيم (الفقد، الحرمان، الفوات).

١٤. تهوين كل فقد بعد وفاته (ﷺ) فقد روي عنه: "ليعزى المسلمين عن مصائبهم المصيبة بي"(٢).

١٥. الماضي فرط للباقي، وإن الموت لموعد صادق، ووعد جامع.

١٦. تجربة الفقد عظة وذكرى للمبتلى.

---

(١) المستدرك للحاكم ٣ / ٥٩.

(٢) الزهد والرقائق، لعبد الله ابن المبارك ، ١ / ١٥٨، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.

١٧. ربما تقرن التهنئة بـــ (آجل الثواب) بالتعزية على (عاجل المصاب) عند الربانيين؛ بينما تقرن التهنئة على (الولاية) للابن بالتعزية على وفاة أبيه عند المتصارعين على السلطان والمغتبطين به.

ثانيا:ـ في النسق التعبيري:

١. الموقف الحواري الثنائي القصير هو الشكل الغالب لفن التعزية، ويتميز بتوظيف (المشهد التصويري) و (المشهد الحواري)، وتقنية (الإدهاش) باستخدام اللفظ في عكس مدلوله، استثارة للمتلقي، ثم ترطيب القلوب بالجملة الدعائية؛ مسلاة للمصاب وتخفيفا لآلامه.

٢. استخدمت (الخطبة) في بعض مواقف التعزية، وضمنت كثيرا من الحكم والوصايا، يبثها ذو الخبرة والتجربة للمتلقين عنه.

٣. ضمنت بعض الخطب قضايا فلسفية، تتناول صراع الإنسان مع الزمن،وما يتوقعه من حوادث، وكثرت فيها استخدامات أجزاء الزمن (أمس، اليوم، الغد...)، كما عولجت قضية (القدر) وتحكمه في رحلة الإنسان من المولد إلى الوفاة.

٤. وقد غلب الإيجاز على خطب التعزية، وتزاوجت فيها الأساليب، بين خبرية وإنشائية، بينما طالت بعض الخطب – وهي قليلة – تلك التي عولجت فيها القضايا الفلسفية، فاستخدم فيها الإطناب والتفصيل وضرب المثل، ووظف الاستفهام بأغراضه البلاغية، كما كثر استعمال صيغة (التفضيل)، ونمطي (الطباق) و(المقابلة)، كما استخدم (الأمر الإرشادي)، بجانب (النهي التحذيري).

٥. تمثلت (التعزية الكتابية) في الرسائل التي يبعثها المعزون، وهي موجزة في غالبها، تتركز فيها (العظة)، وتدور حول حقيقة (الفناء) و (رحلة المكابدة للبشر على الأرض).

٦. وكما كانت خطب التعزية في موت الولاة،مقرونة بتهنئة خلفائهم في تلك المناصـــب، امتزجت – أيضا – التعزية بالتهنئة في رسائل هذه الفئة، وقد غلب على بعضها التزلف والتملق.

٧. لكن رسائل (الكتاب) تمثل طـــرازا جديدا في الإبداع الفني الكتابي، حيث يتزين فيها (المضمون الفلسفي) بالصياغة الفنية الرائقة، وفيها يوظف (الترادف) و (تزاوج الجمل)، و (المقابلة) و (الطباق)، مع غطاء موسيقي يوفره السجع، كل ذلك في مناقشة جادة لقضيتي (البقاء و الفناء).

مراجع الدراسة

١. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨.

٢. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر، تحقيق علي البجاوي، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢.

٣. أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير، تحقيق على معوض وعادل أحمد، ط ١ دار الكتب العلمية، ١٩٩٤.

٤. الإعجاز والإيجاز، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، مكتبة القرآن، القاهرة، بدون ت.

٥. الأعلام، خير الدين الزركلي، ط ١٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢.

٦. الأمالي، أبو علي القالي، ط ٢، دار الكتب المصرية، ١٩٢٦.

٧. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق علي شيري، ط ١، دار إحياء التراث، بدون ت.

٨. البصائر والذخائر، علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي، تحقيق وداد القاضي، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٩. البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، دار الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

١٠. تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عطار، ط ٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧.

١١. التاج في أخلاق الملوك، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق أحمد زكي باشا، ط١، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤.

١٢. التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن بن محمد بن حمدون، ط١، دار صادر، بيروت، ١٤١٧هـ.
١٣. التعازي، أبو الحسن علي بن محمد المدائني، تحقيق إبراهيم صالح، ط١، دار البشائر، ٢٠٠٣.
١٤. التعازي، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق إبراهيم محمد الجمل، دار نهضة مصر، بدون ت.
١٥. الجامع الكبير، محمد بن عيسى الترمذي، الجزء الثالث، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٥.
١٦. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر، ط١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.
١٧. جدد حياتك، محمد الغزالي، ط٦، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٩٩.
١٨. جمهرة أشعار العرب،أبو زيد القرشي،تحقيق علي البجادي، دار نهضة مصر، بدون ت.
١٩. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥ هـ.
٢٠. دليل الفالحين شرح رياض الصالحين، محمد علي البكري، ط ٤، دار المعرفة، بيروت،٢٠٠٤.
٢١. ديوان ابن الرومي، تحقيق د حسين نصار، دار الكتب المصرية، ١٩٧٤.
٢٢. ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ط١، دار المعرفة، ٢٠٠٤.
٢٣. الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون ت.

٢٤. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين البيهقي الخراساني، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.
٢٥. شرح سنن أبي داود، أبو محمد بدر الدين العيني، تحقيق خالد رياض المصري، ط١، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٩٩.
٢٦. شروح سقط الزند، لكل من: أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي، وأبو محمد عبدالله بن السيد البطليوسي، وأبو الفضل قاسم بن حسين الخوارزمي، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط٣، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧.
٢٧. الطبقات الكبرى، لأبي عبدالله محمد بن سعد بن منيع، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.
٢٨. العبر في خبر من غبر، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق محمد السعيد بسيوني، دار الكتب العلمية بيروت، بدون ت.
٢٩. العقد الفريد، ابن عبد ربه أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤ هـ.
٣٠. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبي محمد بدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون ت.
٣١. عيون الأخبار، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤١٨هـ.
٣٢. غرر الخصائص الواضحة و عرر النقائص الفاضحة، أبو إسحاق برهان الدين محمد بن إبراهيم الوطواط، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨.

٣٣. الفاضل، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، ط٣، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٤٢١هـ.
٣٤. الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٣، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧.
٣٥. مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن عبيد الله المباركفوري، ط ٣، إدارة البحوث العلمية بالجامعة السلفية، الهند، ١٩٨٤.
٣٦. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن محمد الهروي، ط١، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٢.
٣٧. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبدالله النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.
٣٨. مسند الإمام أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط١، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١.
٣٩. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (ﷺ)، الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون ت.
٤٠. المعجم الكبير،، سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد، ط٢، مكتبة بن تيمية، القاهرة، بدون ت.
٤١. المفضليات، للمفضل بن محمد بن يعلى الضبي،تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، ط٦، دار المعارف، بدون ت.
٤٢. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن الأثير، تحقيق طاهر الزواوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢٦٧
تمهيد	٢٧٣
المحور الأول: رؤى إبداعية	٢٧٥
المحور الثاني: المضامين الأساسية	٢٩٣
أولا: لله ما أخذ وله ما أعطى:	٢٩٣
ثانيا: في الله عزاء من كل مصيبة وخلف من كل فائت:	٢٩٩
ثالثا: الماضي فرط للباقي:	٣٠٥
رابعا: بين الصبر و السلو تتفاوت المراتب:	٣٠٨
خامسا: الفرار من جحيم الجزع إلى عظيم الأجر:	٣١٥
سادسا: التسلي بسوابق التجارب وعظم المآل وحسن الخلف:	٣٢٠
سابعا: تجارب الفقد ذكرى للحى:	٣٢٥
ثامنا: تعزية وتهنئة وجهان لموقف واحد	٣٢٧
المحور الثالث: النسق التشكيلي	٣٣١
الخاتمة	٣٣٨
مراجع الدراسة	٣٤٤
فهرس الموضوعات	٣٤٨